

## الفصل الخامس

مداخل الشيطان لإفساد القلوب

## مداخل الشيطان لإفساد القلوب

- أهمية القلب :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

القلب لهذه الأعضاء كالمملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ وتبته فيما يعقده من العزم أو يحلله، قال النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»<sup>(١)</sup> فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هدايته ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ؛ لأن كل راعٍ مسئول عن رعيته اهـ<sup>(٢)</sup>. ولذا كان القلب هو محل الاختبار والابتلاء وعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصر عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، قلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض . والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى :

فشبه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً ، كعرض عيدان الحصر وهي طاقاتها شيئاً فشيئاً، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب الإسفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض

(١) البخاري (١ / ١٢٦ فتح الباري) ، مسلم (١٠ / ٢٨ بشرح النووي).

(٢) إغائة اللفهان (١ / ٥).

(٣) رواه مسلم (٢ / ١٧١).

عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله «كالكوز مجخياً» أي مكبوباً منكوساً، فإذا اسود انتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران متراميان به إلى الهلاك.

أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وربما استحكمت عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً.

الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به النبي ﷺ ، وانقياده للهوى واتباعه له . وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردھا، فازداد نوره وإشراقه وقوته .

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغي والضلال ، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل ، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد اهـ<sup>(١)</sup>.

ولذلك يجب على المسلم أن يراقب قلبه ويتعرف أحواله ويتخوله بالموعظة بين الحين والآخر، وليعلم أنه بصلاحه تكون السعادة الأبدية وبفساده يكون الشقاء والبلاء والخسران المبين.

واعلم أنه كلما ازداد إيمان القلب وقوي يقينه زاد نوره الذي يميز به بين الحق والباطل والهدى والضلال، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدھا الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدھا القيح والدم فأی المادتين غلب على الأخرى غلب عليه»<sup>(٢)</sup>.

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٢).

(٢) رواه أحمد والطبراني في الصغير.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى :

فقوله «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله ورسوله فقد تجرد وسلم مما سوى الحق و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي بحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار «بالقلب الأغلف» إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان كما قال تعالى حاكياً عن اليهود: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾<sup>(١)</sup> وهو جمع أغلف وهو الداخل في غلافه ، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله عز وجل على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله .

فهي أكنة على القلوب ، ووقر في الأسماع ، وعمى في الأبصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾<sup>(٢)</sup> فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولّى أصحابها على أدبارهم نفوراً .

وأشار بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق كما قال تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾<sup>(٣)</sup> أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه ، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة ، وهو شر القلوب وأخبثها ، فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه والحق باطلاً ويعادي أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب «الذي له مادتان» إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يظهر فيه سراج ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر ، والحكم للغالب وإليه يرجع ا . هـ<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة البقرة / ٨٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٥ - ٤٦ .

(٣) سورة النساء الآية ٨٨ .

(٤) إغاثة اللهفان (١ / ١٢) .

ومن هنا يتبين لنا أن مدار الأعمال على القلب ، فهو القائد والجوارح جنوده يوجهها حيث أراد .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى : ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس ، وأقبل بوجوه الشهوات إليه ، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصدّه عن الطريق ، وأمدّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق ، ونصب له من المصايد والحبائل ، فإن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى ، والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته ، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾<sup>(١)</sup> فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين ، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين وإشعار القلب بإخلاص العمل ودوام اليقين ، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾<sup>(٢)</sup> . اهـ<sup>(٣)</sup> .

ونقاء القلب وإخلاصه يرفع صاحبه درجات ، فقد روى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : يا رسول الله : من خير الناس؟ قال : «كل مؤمن مخموم القلب». قالوا وما مخموم القلب؟ قال : «هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد»<sup>(٤)</sup> .

#### كيفية الوسوسة :

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى : الوسواس (فعال) من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه . فالوسواس : الإلقاء الخفي في

(١) سورة الإسراء الآية ٦٥ .

(٢) الحجر الآية ٤٠ .

(٣) إغائة اللهفان (١ / ٦) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢ / ١٤٠٩) ، وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٣٦٤) : إسناده صحيح

النفس إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقى إليه، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد. اهـ<sup>(١)</sup>.

وقال أيضاً - رحمه الله في الوسوسة : هي مبدأ الإرادة فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله ، فيصور لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة ، ويزينها له بحسنها له ويخيلها في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة. ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث جنوده في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً ولهم عوناً، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسَّوهُمْ أَزْوَاجًا﴾<sup>(٢)</sup> أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً ، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بالطف حيلة وأتم مكيدة.

وقد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم آدم فلا اعتر بتلك النخوة ولا فاز برضاه أن يصير قواداً لكل من عصى الله كما قال بعضهم :

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي تَيْهِهِ      وَقُبِحَ مَا أَظْهَرَ مِنْ نَخْوَتِهِ  
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ      وَصَارَ قَوَادًا لِذُرِّيَّتِهِ

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة.

كيف يدخل الشيطان على الإنسان؟

قال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى : وإنما يدخل على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم ، وجهلهم وعلمهم.

(١) التفسير القيم ٦٠٠.

(٢) سورة مريم الآية ٨٣.

واعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم - أي نوافذ - وساكنه العقل والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن ، وإلى جانبه ربض فيه الهوى والشياطين ، تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وُكِّلَ بحفظه وجميع الثلم وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة ، فإن العدو لا يفتر .

قال رجل للحسن البصري : أينام إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يترأى فيها صور كل ما يمر به فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرأة . وللعُدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج وربما دخل فعاث - أي أفسد - وربما أقام لغفلة الحارس ، وربما كدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرأة ، فيمر الشيطان ولا يدري به ، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم ، وأقام يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه في الشر .

قال بعض السلف : رأيت الشيطان فقال لي : كنت ألقى الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم . وربما هجم الشيطان على الذكي الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر إليها فيستأثره .

وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى: الجهل ، وأوسطه في القوة : الهوى ، وأضعفه الغفلة ، وما دام درع الإيمان على المؤمن فإن نبل العدو لا يقع في مقتل اهـ<sup>(١)</sup> .

ثم ساق بسنده عن الأعمش قال : حدثنا رجل كان يكلم الجن قالوا: ليس علينا أشد ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإننا نلعب بهم لعباً اهـ .

واعلم أخي المسلم أن الشيطان لا يدخل إلا على ذي القلب الخالي من الذكر والتقوى والإخلاص واليقين فيلقي وساوسه فتجد المحل خالياً فتتمكن منه وتستقر فيه

كما قيل :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

وأما إذا كان القلب عامراً بالإيمان مسربلاً بالتقوى، محصناً بالذكر فلا يكون للشيطان عليه سلطان ولا إليه سبيل.

والطامة الكبرى فيما إذا كان القلب محشواً بالهوى والشهوة فهما قوت الشيطان فلا يمكن دفعه وهذا كمثل كلب جائع مر برجل بين يديه لحم، فكلما زجره لم يتنه فإذا رفع اللحم من بين يديه يئس الكلب وانصرف، كذلك صاحب القلب المليء بالشهوات فلا بد أن يطهره أولاً منها ثم يعمره بالتقوى وفي هذه الحالة عندما يقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» انصرف عنه الشيطان.

ومن فهم هذا عرف سبب قلة جدوى الاستعاذة عند كثير من الخلق فليست الاستعاذة مانعة للشيطان إلا إذا كان قلب المستعيز خالياً من قوت الشيطان وعامراً بالتقوى والإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> فهذه الآية خاصة بالمتقين دون غيرهم.

- مراتب الإغواء :

الشيطان يتعقب الإنسان ويتبعه ولا يبرد أنيه إلا إذا أغواه وأفسده وضمه إلى حزبه الخاسرين، وقد جمع ابن القيم رحمه الله تعالى مراتب إغواء الشيطان للإنسان فقال :

- المرتبة الأولى :

الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنيه، واستراح من تعبته معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه.

- المرتبة الثانية :

وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين،

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

هو ضرر متعدّد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به. وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه، وداعياً من دعائه، فإذا أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى:

#### - المرتبة الثالثة:

وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها ولا سيما إذا كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً - بزعمه - إلى الله تعالى وهو نائب إبليس ولا يشعر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾<sup>(١)</sup> هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها، لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه.

كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع بعلمه. وذنوب هذا لو بلغت عنان السماء أهون عند الله لأنه إذا تاب قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات. وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين، وتتبع لعوراتهم، وقصد لفضيحتهم.

والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائن الصدور، ودسائس النفوس. فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

#### - المرتبة الرابعة:

وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فرما أهلكت صاحبها. قلت: روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»<sup>(٢)</sup>. قال الحافظ: سنده حسن.

(١) سورة النور الآية ١٩.

(٢) فتح الباري (١١ / ٣٢٩).

وروى الدارمي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»<sup>(١)</sup>.

وروي عن ابن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: «إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فيكون منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

#### - المرتبة الخامسة:

وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوات الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها (قلت وهذه المباحات مثل: كثرة النوم، والطعام، والشراب، واللباس، والسهر فيما لا يفيد). قال فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظاً لوقته شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى:

#### - المرتبة السادسة:

وهو أن يشغله بالعمل المفضول غن الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه. وقل من ينتبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحرراً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بالخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي من الله، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأفضل.

(١) رواه الدارمي (٢/ ٣٠٣)، ابن ماجه (٢/ ١٤١٧) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث

الصحيحة (٥١٣).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٣٠).

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله عز وجل يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله تعالى وأحبها إليه وأرضائها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه وعباده المؤمنين - خاصتهم وعامتهم - ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر ذلك بقلوبهم. والله يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعياء عليه، يسلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتحذير منه وقصد إخماده وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني اهـ (١) .

وهذا واضح في مجتمعنا، فما من عبد التزم بدينه واستمسك بهدي نبيه وستته وسار على نهجه إلا وجد الصدود والعناد والسخرية والاستهزاء من الأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، فليس له ملجأ إلا إلى الله. وهذا شاب جرت له هذه المحنة فانبرى يقول:

عَبْدٌ سَرَى فِي لَيْلَةٍ ظَلَمَاءَ	هَرَبًا بِتَقْوَاهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ
هَرَبًا مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي حَاطَتْ بِهِ	مِنْ فِتْنَةِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
عَبْدٌ فَتِيٌّ فِي مُسْتَهْلٍ شَبَابِهِ	عَرَفَ الْهُدَى وَطَرِيقَهُ بِصَفَاءِ
قَرَأَ الْقُرْآنَ تَفَهُمًا وَتَدْبِيرًا	وَكَذَا اهْتَدَى لِلِسُنَّةِ الْعُرَّاءِ
وَرَأَى حَيَاةَ الصَّالِحِينَ سَعِيدَةً	بِالْخَيْرِ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ
فَتَشَوَّقَتْ نَحْوَ السَّعَادَةِ نَفْسُهُ	وَعَدَا يُهْدِدُهُ شَوْقُهُ بِخَفَاءِ
حَتَّى إِذَا التَّزَّمَ الْهُدَى بِعَزِيمَةٍ	لِللَّهِ خَالِصَةً مِنَ الْأَهْوَاءِ
نَادَتْ بِهِ فِتْنُ الضَّلَالَةِ جَهْرَةً	وَدَعَتْهُ بِالتَّزْيِينِ وَالْإِغْرَاءِ

وَتَزَيَّنْتَ دُنْيَاهُ فِي أَثْوَابِهَا  
وَعَدَّتْ تَغْرُ النَّاسَ فِي إِغْوَائِهَا  
وَنَسًا بِمَجْتَمَعٍ بِهِ اخْتَلَطَ الْهُدَى  
وَالنَّاسُ تَأْخُذُ مِنْهُ مَا يُرْضِي الْهُوَى  
إِنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ الصَّرِيحِ تُقِيمُهُ  
لَمْ يَعْرِفُوهَا قَبْلَ ذَا مِنْ جَهْلِهِمْ  
قَامَتْ قِيَامَتُهُمْ وَرُوعَ جَمْعُهُمْ  
أَتْرِيدُ تَبْدِيلًا لِدِينِ شَيْوَحِنَا  
وَمَتَى عَرَفْتَ هُدَى النَّبِيِّ وَدِينَهُ؟  
فَإِذَا أَقَمْتَ عَلَيْهِمْ حُجَجَ الْهُدَى  
قَالُوا هَذَاكَ مُنْفَرٌّ وَمُشَدَّدٌ  
لَمَا أَتَاهُمْ بِالْهُدَى هَذَا الْفَتَى  
وَاسْتَهْزَءُوا بِسُلُوكِهِ وَبِدِينِهِ  
وَإِنْ رَأَوْهُ يَلِكِينَ أَوْ طَمَعُوا بِأَنْ  
فَتَنُّ عَلَى دَرْبِ الْهُدَى تُغْرِي الْفَتَى  
فَتَضَايَقَتْ أَخْلَاقُهُ مِنْ حَالِهِ  
وَجَدَ الدِّرَاسَةَ حَيْثُ كَانَ قَوْمُهَا  
بَدَلَ النَّصِيحَةِ جَهْرَةً وَبِخْفِيَةٍ  
لَا سِيَّمَا فِي أَهْلِهِ وَقَرَابَةِ  
لِكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الْهُدَى  
بَلْ حَارِبُوهُ بِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ

بِمِبَاسِمٍ وَتَوَاطَرَ كَحَلَاءِ  
حَتَّى أَضَلَّتْ أَكْثَرَ الدَّهْمَاءِ  
بِقُوَى الرَّدَى وَالنُّورِ بِالظُّلْمَاءِ  
فَإِذَا تَعَارَضَ فَهُوَ فِي إِقْصَاءِ  
وَصَدَعَتْ فِيهِ بَسْنَةُ بَيْضَاءِ  
أَوْ لَمْ تَرُدْ بِوَصِيَّةِ الْآبَاءِ  
وَرَأَوْكَ مُبْتَدِعًا وَذَا إِغْوَاءِ  
وَطَرِيقَةَ الْعُظْمَاءِ وَالْوُجْهَاءِ؟  
بِالْأَمْسِ كُنْتَ فَتَى مَعَ الْجُهْلَاءِ!  
وَدَمَعْتَ بِأَطْلِهِمْ بِدُونِ خَفَاءِ  
وَإِذَا بِهِ اسْتَمْسَكَتْ أَنْتَ مُرَائِي!  
نَفَرُوا نُفُورَ الْحُمْرِ وَالْحَمَقَاءِ  
وَعَنِ الْهُدَى فَتَنُّوهُ بِالْإِيذَاءِ  
يُضْغِي لَهُمْ فَتَنُّوهُ بِالْإِغْرَاءِ  
وَآخِرُهُنَّ لِفِتْنَةِ السَّرَاءِ  
كَتَضَايِقِ الْإِيمَانِ فِي الْأَهْوَاءِ  
أَخْلَاطِ سُوءِ شَاعٍ فِي الْجُلُسَاءِ  
لِذَوِيهِ وَالْأَصْحَابِ وَالزُّمَلَاءِ  
جَهَلُوا فَنَادَاهُمْ بِلُطْفِ نِدَاءِ  
لَمَا أَتَى مِنْ أَصْغَرِ الْآبْنَاءِ  
وَرَمَوْهُ بِالتَّعْقِيدِ وَالْإِعْيَاءِ

لَمْ يَنْقِمُوا مِنْهُ سِوَى أَنْ قَالَهَا  
 وَأَتَاهُ ضَيْقًا بَعْدَ ضَيْقٍ فَالْتَجَا  
 وَيَقُولُ يَا رَبَّاهُ عَبْدُكَ مُؤْمِنٌ  
 إِنِّي أَخَافُ مِنَ الضَّلَالِ وَإِنِّي  
 أَنْقَذُ غَرِيقًا فِي الدُّجَى قَدْ رَاعَهُ  
 الْمَوْجُ عَاصِفَةً، الضَّلَالُ ظَلَامَةٌ  
 كَيْفَ الْمَقَامُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَكْتُمَ  
 وَيَبَاطِنُهُ لِأَبَدٍ فِيهِ مِنَ السَّلَاحِ  
 أَعْنِي بِذَلِكَ أَوْلِيَّ الْحَدِيثِ وَحِزْبِهِ  
 هَذِي حِكَايَةُ حَالِ أَصْحَابِ الْهُدَى  
 يَا رَبِّ فَاحْفَظْهُمْ وَتَبْتَهُمْ عَلَى  
 وَأَرْزُقْهُمْ إِحْيَاءَهَا بِبَصِيرَةٍ  
 وَأَجْعَلْ لَنَا فِيهَا نَصِيبًا وَأَفِرًّا  
 اللَّهُ رَبِّي جَهْرَتِي وَخَفَاتِي  
 يَشْكُو إِلَى الْمَوْلَى عَظِيمَ بَلَاءٍ  
 إِنِّي لِأَخْشَى فِتْنَةَ الدَّهْمَاءِ  
 أَدْعُوكَ فَاقْبَلْنِي وَضَعْفَ دُعَائِي  
 مَوْجٌ يَهِيحُ وَوَحْشَةُ الظُّلْمَاءِ  
 إِنَّ الْهُدَى مُتَلَبِّسٌ بِخَفَاءِ  
 الْحَقِّ الصَّرِيحِ لِرَهْبَةٍ وَرَجَاءِ  
 الْعِلْمِ أَفْلَقَ حُجَّةَ الْجُهَلَاءِ  
 الْعَامِلِينَ بِهَدْيِهِ الْوَضَاءِ  
 سُدَى فِي تَمَرَةِ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ  
 نَصْرِ الْهُدَى وَالسُّنَّةِ الْبَيِّضَاءِ  
 وَأَرْزُقْهُمْ صَبْرًا عَلَى الْإِحْيَاءِ  
 يَا رَبِّ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ

فهذا حال الملتزمين بالإسلام ظاهراً وباطناً وهم الغرباء الذين بشرهم النبي ﷺ بقوله : «طوبى للغرباء»<sup>(١)</sup>.

### - طرق الشيطان في إضلال الإنسان :

لو أن إنساناً مارس عملاً معيناً خمسين عاماً - مثلاً - لأصبح فيه محنكاً بمدخله وطرقه وخفائاه .

فهذا إبليس -عليه لعنة الله- من يوم طرده من الجنة حتى الآن ليس له عمل إلا إضلال الخلق وإغواؤهم ، فهذه المدة الطويلة وتلك الخبرة المديدة جعلته يخترع أفانين

(١) رواه مسلم (٢/ ١٧٦) شرح النووي.

في الإغواء والإضلال فمن هذه الحيل :

### ١ - تزيين الباطل :

إن الباطل له صورة قبيحة وسمة وقحة ولذلك يعمد الشيطان إلى هذا الباطل فيغطيه بغطاء جميل ويلبسه رداءً حسناً ثم يزينه ويحسنه ثم يبدأ في إغواء العبد به وما علمنا ذلك إلا من قول الشيطان نفسه حين قال لربه : ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(١)</sup> . فالتزيين أولاً ثم الإغواء .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى : ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكبده ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء ، حتى يخيل له أنه يضره ، فلا إله إلا الله كم فتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلى الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة ! وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ! وكم روج من الزغل على العارفين ، فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة ، والآراء المتشعبة ، وسلك بهم سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيع الأرحام ، وواد البنات ، ونكاح الأمهات ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم والعمل بقوله : ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> والإعراض عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام في قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منه ، والنفاق والادهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس اه<sup>(٣)</sup> .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٥

(١) سورة الحجر الآية ٣٩ .

(٣) إغائة اللههان (١) / ١١٠

## ٢ - تسمية المعاصي بأسماء محبية :

ومن صور هذا التزيين تسمية الفواحش والمعاصي بأسماء محبة إلى النفوس لكي يخفى خبثها وفحشها، فهو الذي سُمى الشجرة بشجرة الخلد ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾<sup>(١)</sup> يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «وقد ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر بأم الأفرح . . . .»<sup>(٢)</sup>.

فهم الذين يسمون الربا بالفائدة، ويسمون التبرج الفاضح بحرية المرأة، ويسمون الاختلاط المستهتر بالتقدم والتمدن، ويسمون المغنية الفاسقة والفجور والعصيان تحت اسم الفن ، كل هذا ليجذبوا قلوب الناس إلى فحشهم وخبثهم .

## ٣ - تسمية الطاعات بأسماء منفرة :

إن الحق تكون عليه مسحة من نور ، وتعلوه إشراقة وضاءة فلو ظل كما هو دون تشويه أو تقبيح لتهاقت إليه النفوس، وصغت إليه الأسماع وركنت إليه القلوب؛ ولذا كان دور الشيطان الأول هو تقبيح صورة الحق وتشويهها وتسميته بأسماء منفرة، فهو الذي أوحى إلى أوليائه من الكفار من قوم عاد أن يقولوا لنبيهم هود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار مدين أن يقولوا للناس: ﴿لَعْنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قوم فرعون بتسمية موسى وهارون ساحرين ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾<sup>(٥)</sup> وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش

(١) سورة طه الآية ١٢٠

(٢) إغائة اللفهان ١ / ١١٢

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٩٠ .

(٥) سورة طه الآية ٦٣ .

بتسمية رسول الله ﷺ بالساحر والكاهن والشاعر والمسحور والمجنون وغيرها من الأسماء المنفرة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾<sup>(١)</sup> ولكن الله تبارك وتعالى نفى كل ما نسب إلى رسوله ﷺ من زور وبهتان فقال سبحانه: ﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بتسمية أتباع النبي ﷺ بالصابئين.

وما زال الشيطان يسير في نفس الخطة وبتلك الوسائل حتى زماننا هذا.

فهو الذي أوحى إلى أوليائه بتسمية المتمسكين بهدي النبي ﷺ والمستنين بسنته ظاهراً وباطناً بالمتطرفين والمتعصبين.

كما يسمون البعد عن المعاصي ودور الفسق والفجور انغلاقاً ويسمون الحجاب الشرعي خيمة، ويسمون المرأة التي التزمت بأمر ربها وجلست في بيتها رجعية، ومتخلفة، كل ذلك من وحي الشيطان إليهم.

ولكن أنادي أهل الحق: لا تجعلوا هذا يثني من عزمكم فتراجعوا عن سنة نبيكم، بل ازدادوا تمسكاً وقولوا:

لا تَلْمِزُونَا يَا خَفَافِشَ الدُّجَى	بِتَطْرَفٍ وَتَسْرِعٍ وَتَشَدِّدِ
لا تَقْدِفُونَا بِالشَّدُوذِ فَإِنَّا	سِرْنَا عَلَى نَهْجِ الخَلِيلِ مُحَمَّدٍ
وِكُلِّ قَوْلٍ نَسْتَدِلُّ بِآيَةٍ	أَوْ بِالْحَدِيثِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُسْنَدِ
وَالنَّسْخِ نَعْرِفُ وَالْعُمُومَ وَإِنَّا	مُتَفَطِّنُونَ لِمُطْلَقٍ وَمُقَيَّدِ

(١) سورة الفرقان الآية ٨.

(٢) سورة الطور الآية ٢٩.

(٣) الحاقة الآية ٤١ : ٤٣.

وَنُصُوصُ وَحْيِ اللَّهِ نُتَقِنُ فَهَمَّهَا  
وَأِذَا تَعَارَضَتِ النَّصُوصُ فَإِنَّا  
لَا تَحْسِبُونَ الْفَهْمَ كَالرَّأْيِ الرَّدِّيِّ  
بِأُصُولِ سَادَتِنَا الْأَيْمَةِ نَهْتَدِي

#### ٤ - دخوله إلى النفس من أحب الأبواب إليها :

إن عدو الله لا يدخل على النفس إلا من الباب الذي تحبه وتهواه ؛ لأنه بذلك يحقق مرادها وهوها فيجد الشيطان من النفس عوناً ومن الهوى مدداً .

يقول ابن القيم : «وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مسدود» اهـ<sup>(١)</sup> .

#### ٥ - التدرج في الإضلال :

إن الشيطان لا يأتي الإنسان ويقول له : افعِلْ هذه المعصية أو ارتكب هذه الفاحشة . وإنما يقربه منها خطوة خطوة . وقد يماً قالوا : «نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء» . وهنا يقع المحذور ، فلذلك حذرنا الله تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup> .

فهذا نداء شفقة ورحمة من الرؤوف الرحيم إلى عباده محذراً لهم من اتباع طرق الشيطان ومسالكه . ومنبهاً على أنه يجب على العبد أن يغلق باب الطريق من أوله كي لا يندرج معه في الغواية والضلال .

ومن فهم مقاصد الشريعة تبين له ذلك بوضوح فما قاعدة «سد الذرائع» إلا من هذا

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١١٢) .

(٢) سورة النور الآية ٢١ .

القبيل، وكذا تحريم الخلوة بالأجنبية وغيض البصر فكن متيقظاً أخي المسلم لخطط الشيطان وحبائله.

ويروى عن وهب بن منبه قال : كان عابد في بني إسرائيل وكان أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرًا ليس لهم أخت غيرها فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها.

قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن أختهم قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال : أنزلوها في بيت حيال صومعتي، قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زمانًا ينزل إليها بالطعام من صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من طعام.

قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلما مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعها على باب بيتها ولم يكلمها قال : فلبث على هذه الحالة زمانًا.

ثم جاء إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه وقال : لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك ، قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها ، فلبث على ذلك زمانًا.

ثم جاء إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحديثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، قال : فلم يزل به حتى حدثها زمانًا يطلع إليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحديثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله

وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها فلبثا زمانًا يتحدثان .

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها ، فلم يزل حتى فعل ، قال فلبثا زمانًا .

ثم جاءه إبليس - عليه لعنة الله - فرغبه في الخير وفيما له عند الله سبحانه وتعالى من حسن الثواب فيما يصنع بها وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل ، فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبث ذلك حينًا .

ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت معها البيت فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذاها وقبلها فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبها فولدت له غلامًا .

فجاء إبليس فقال : أرايت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنتها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنتها ؟ قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنتها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنتها وأطبق عليها صخرة عظيمة وسوى عليها وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما يشاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاءوا فسألوا عنها ، فنعاهوا لهم وترحم عليها وبكاها وقال : كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه ، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أيامًا ثم انصرفوا إلى أهاليهم .

فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل

مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أخته فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان، وقال لم يصدقكم أمر أختكم إنه أحبل أختكم وولدت له غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم وألقاها في حفيرة احترها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطلقوا فادخلوا البيت فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعاً.

وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك ، وأتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى.

فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم ، قال أصغرهم : والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه . فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ففتحو الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبحين في الحفيرة كما قيل لهم ، فسألوا عنها العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما .

فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب ، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أطعني اليوم وكفرت بالله الذي خلقتك وصورك خلصتك مما أنت فيه ، قال : فكفر العابد بالله ، فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه<sup>(١)</sup>.

قال المفسرون : في هذا وأمثاله نزلت : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) تلييس إبليس ٢٦

(٢) سورة الحشر الآيات ١٦ ، ١٧

هكذا خطط له الشيطان ودبر، حتى نال منه ما يريد وما وقع هذا العابد فيما وقع فيه إلا من جهله بمداخل الشيطان وخطواته، فلو أنه امتنع عليه من أول خطوة لرده خاسئاً.

روى ابن الجوزي بسنده إلى وهب بن منبه قال : كان راهب في صومعته في زمن المسيح عليه السلام، فأراه إبليس فلم يقدر عليه، فأتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه، فأتاه متشبهاً بالمسيح، فناداه : أيها الراهب أشرف عليّ أكلمك، قال : انطلق لشأنك فلست أرد ما مضى من عمري.

فقال أشرف عليّ فأنا المسيح . فقال : إن كنت المسيح فما لي إليك حاجة ، ألت قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة ، انطلق لشأنك فلا حاجة لي منك ، فانطلق اللعين وتركه<sup>(١)</sup>.

انظر إلى كلا العابدين : الأول أضله الشيطان بسبب جهله والثاني عصم من الشيطان بسبب علمه؛ ولذا قال النبي ﷺ : «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح.

#### ٦ - الصد عن الحق :

أخذ الشيطان على نفسه عهداً ليضلن بني آدم وليغوينهم أجمعين إلا من اعتصم منهم بالله تعالى وتحصن بحصن الإخلاص ، فذلك لا سبيل للشيطان إليه.

قال تعالى : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال القرطبي - رحمه الله تعالى - : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي : بالصد عنه وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك.

قال : والصرراط المستقيم هو الطريق إلى الجنة اهـ<sup>(٣)</sup>.

(١) تليس إبليس ٢٩

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(٣) تفسير القرطبي (٧ / ١٧٥).

قال الحكم بن عتيبة : ﴿ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من دنياهم ﴿ وَمَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ من آخرتهم ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يعني حسناتهم ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ يعني سيئاتهم .  
 قال النحال : وهذا قول حسن وشرحه : أن معنى ﴿ ثُمَّ لَا تَنْهَهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من دنياهم حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة ، ﴿ وَمَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ من آخرتهم حتى يكذبوا بها ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ في حسناتهم وأمور دينهم ويدل على هذا قوله : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ ، ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ يعني سيئاتهم ، أي يتبعون الشهوات ؛ لأنه يزينها لهم ، ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أي موحدين طائعين مظهرين الشكر . ا . هـ .<sup>(١)</sup>

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ولم يقل من فوقهم ؛ لأنه علم أن الله من فوقهم قال قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله<sup>(٢)</sup> .

قال شقيق : « ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾<sup>(٣)</sup> وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه فأقرأ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾<sup>(٤)</sup> ، ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء فأقرأ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(٥)</sup> ، ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾<sup>(٦)</sup><sup>(٧)</sup> .

(١) تفسير القرطبي (٧ / ١٧٦)

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ١٠٣)

(٣) سورة طه . آية : ٨٢ .

(٤) سورة هود . آية : ٦ .

(٥) سورة الأعراف : آية : ١٢٨ .

(٦) سورة سبأ : آية : ٥٤ .

(٧) إغاثة اللهفان (١ / ١٠٤) .

قال ابن القيم رحمه الله : السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير فإنه تارة يأخذ عن جهة يمينه وتارة عن شماله ، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه ، فأى سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رسداً له ، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبته عنها ويقطعه ، أو يعوقه ويبطئه ، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادماً ومعيناً ومعنياً ، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه هناك اهـ<sup>(١)</sup>.

روى الإمام أحمد والنسائي من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الغرس في الطول فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد وهو جهد - أي تلف - النفس والمال فتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخل الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»<sup>(٢)</sup>.

#### ٧ - إظهار النصيح للإنسان :

إن الشيطان لا يأتي الإنسان ويقول له أفعل كذا من المعاصي لكي تنال العذاب الأليم ، وإنما يأتيه في صورة الناصح الأمين ، وبهذه الحيلة تمكن من إغواء أبويننا وإخراجهما من الجنة ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ولذلك حذرنا الله من هذه الفتنة وتلك الحيلة قائلاً : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾<sup>(٤)</sup>.

كما روي عن بعض السلف أنه قال : إذا جاءك الشيطان في الصلاة فقال إنك ترائي

(١) إغائة اللهقان (١ / ١٠٤).

(٢) رواه النسائي (٥ / ٢١)، وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح (١٣٨٩).

(٣) سورة الأعراف الآية ٢١.

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٧.

فزدها طولاً. فلا نجاة إلا بمخالفة الشيطان ولو أظهر النصح للإنسان.

#### ٨ - الاستعانة بشياطين الإنس :

إن من الناس من تخالط بشاشة الإسلام قلبه فيقوى إيمانه ويعلو يقينه ويخالط الإسلام لحمه ودمه فلا يسير إلا على هديه ولا يستضيء إلا بنوره ولا يقتدي إلا برسوله ﷺ فهو ملتزم بالإسلام في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته، وهذا الصنف من الناس - وهم قليل - يأتهم الشيطان بكل شاردة وواردة فلا يستطيع أن يغويهم فبعد ما تعجزه الحيل معهم يستنجد بأوليائه من شياطين الإنس؛ ليعاونوه في تلك المهمة.

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فوجد الشاب إذا هداه الله للالتزام بالإسلام التزاماً كاملاً والسير على نهج خير الأنام ﷺ جاءته الفتن من كل جانب تكشر عن أنيابها فإذا استعصم بحبل الله وصبر وتغلب على شياطين الجن وانتصر عليها جاءه أصدقاء السوء وأتراب الفسوق يشبطون من عزيمته ويوهنون من قوته في الحق ويقولون له :

«ما لك قد حرمت نفسك من متع الحياة فلم تعد تنظر إلى السفيتات الجميلات ولا تشاهد الأفلام والمسرحيات ولا تستمع إلى الفنانين والفنانات وتركت الحفلات والسهرات وتركت الربا في المعاملات وأصبحت تقول هذا حلال وهذا من المحرمات ، إنا نراك قد ضيعت شبابك وفاتك كثير من اللذات...» .

فقل لهم :

أَمْسِي عَلَىٰ نَهْجِ الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ  
وَرَعِبْتُ فِيمَا عِنْدَ رَبِّي الْأَمْجَدِ  
فَأَنَا بَعِيرٌ مُحَمَّدٌ لَا أَقْتَدِي  
طَرِيقَ الْمَجْدِ وَالْهُدَىٰ وَالسُّودِدِ

إِنِّي أَخَافُ مِنَ الضَّلَالِ وَإِنِّي  
عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتِهَا  
وَرَعِبْتُ عَنِ سَبْلِ الضَّلَالَةِ كُلِّهَا  
وَأَدْعُوكَ إِلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ

فرما لا يستجيب لك من أول وهلة فقل له :

فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى  
فَلِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا تَفْنَى  
مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَوْلَى

إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا  
فَكَرَّتْ فِي الدُّنْيَا وَعَالَمِهَا  
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ فَمَا

فإن شعرت منه ليئنا فزده :

وَالْقَبْرِ مَسْكُنُهُ وَالْبُعْثُ مَخْرَجُهُ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ نَارٍ سَتُنْضِجُهُ  
وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ أَسْمَجُهُ  
لَمْ يَدِرْ أَنَّ الْمَنِيَا سَوْفَ تُزْعِجُهُ

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ مُدْرِكُهُ  
وَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَاتٍ سَتُبْهَجُهُ  
فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى التَّقْوَى بِهِ سَمِجٌ  
تَرَى الَّذِي اتَّخَذَ الدُّنْيَا لَهُ وَطْنَا

فإن وجدته أسيراً لغفلة فذكره بقولك :

وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالْأَمْسُ لَكَ لَأَزِمُ  
كَمَا سُرَّ بِاللذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ  
كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبِهَائِمُ

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهُوٌ وَعَغْفَلَةٌ  
تُسْرٌ بِمَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بِالْمَنَى  
وَسُغْلُكَ فِيمَا تَكْرَهُ غَبَّةٌ

فإن وجدته مغروراً بفتوته وشبابه فقل له :

غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلإِنْسَانِ  
كَانَ فِي النَّاسِ غَيْرُ أَنَّكَ فَانَ

نَعَمْ أَنْتَ الشُّجَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى  
لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ

ثم ذكره بقولك :

وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهَنْ مَرَّاحِلُ  
إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بَاطِلُ  
فَعُمُرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلَائِلُ

نَسِيرٌ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ  
وَلَمْ نَرِ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ  
تَرَحَّلَ عَنِ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى

ثم قل له ناصحاً :

لِتَطْلُبَ الرِّيحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانُ  
فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ  
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فِضَائِلَهَا

فإن قبل نصحك وعمل بقولك فالحمد لله ، وإن أصر على أن يأخذك معه في طريق الغواية والضلال فاحذره فإنه من شياطين الإنس .

قال مالك بن دينار : «إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن ، وذلك أنني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرتني إلى المعاصي عياناً»<sup>(١)</sup> .

فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن ونسأله سبحانه أن يقينا شرهم ويكفينا مكرهم .



## مداخل الشيطان

### ١ - الجهل :

وهو مدخل عظيم من مداخل الشيطان ولا نبالغ إذا قلنا بأن كل مداخل الشيطان منه تبدأ، وعليه تعتمد وبه تقوى؛ لأن الجاهل لا يعرف مداخل الشيطان فيسدها ولا مكائده فيبطلها ولا شبابه فيتجنبها. فيجذب الشيطان بسهولة ويتغلب عليه بأدنى حيلة.

كما أن الجاهل لا يعرف الخير من الشر ولا السنة من البدعة، فربما أوقعه في الشر وهو يحسب أنه خير، وربما أوقعه في البدعة وهو يظنها سنة وبهذا يكون من الخاسرين: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنَعًا﴾ (١).

والجهل يطمس القلب ويعمي البصيرة ومن هنا يكون الجاهل للشيطان غرضاً فيوجه إليه سهام الشبهات وسموم الشهوات، فيرديه قتيل الهوى أسير الشهوة فإذا وصل إلى تلك الغاية اتخذ الشيطان جنداً ينشر به الفساد في الأرض ويصد به الناس عن الحق وبهذا يصير من حزب الشيطان ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢) ولذا قيل :

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتُ لِأَهْلِهِ      فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورٌ  
وَإِنْ أَمْرٌ لَمْ يَحْيَى بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ      فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورٌ

ومن مداخل الشيطان على الجاهل أنه يصدّه عن طلب العلم ويقول له أيجمل بك أن تجلس أمام العالم جلسة الطالب وأنت قد كبرت؟! فيرضى الجهل.

قال أبو الحسن الماوردي : وربما امتنع الإنسان عن طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره ، فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به وأثره على العلم أن يكون مبتدئاً به . وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل ؛ لأن العلم إذا

(٢) سورة المجادلة الآية ١٩ .

(١) سورة الكهف الآية ١٠٣ .

كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان منه والابتداء بالفضيلة فضيلة، ولئن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً اهـ<sup>(١)</sup>.

وقد قيل : لئن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبباً ولا تكن الخامس فتهلك»<sup>(٢)</sup>.

فإن وجد من الجاهل رغبة في العلم قال له : إن تعلمت العلم ولم تعمل به كان حجة عليك ، فأجمل بك أن لا تتعلمه لكي تخف مؤنتك ويقوى عذرك . وما علم المسكين أن العلم هو الذي يكشف عنه تلك الظلم ويزيح عنه تلك المحن فهو المرشد والمعين كما قال أحد العلماء : «طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله».

وقال رجل لأبي هريرة : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة.

ومن العجب أن الشيطان يخيل لبعض الجهال أنه عالم وهذا منتهى التلبس وقمة الغرور . وقد قسم الخليل بن أحمد الناس من حيث العلم إلى أربعة أقسام فقال : الرجال أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري ، فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس فذكروه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فافرضوه .

وقال أبو القاسم الأمدي :

إِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي وَكَمْ تَكُ بِالَّذِي	يُسَائِلُ مَنْ يَدْرِي فَكَيْفَ إِذَا تَدْرِي
جَهَلْتَ وَكَمْ تَعْلَمُ بِأَنَّكَ جَاهِلٌ	فَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي
إِذَا جِئْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِعُمَّةٍ	فَكُنْ هَكَذَا أَرْضًا يَدُسُّكَ الَّذِي يَدْرِي
وَمِنْ أَعْجَبَ الْأَشْيَاءِ أَنَّكَ لَا تَدْرِي	وَأَنَّكَ لَا تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي

(١) أدب الدنيا والدين ٢٦ .

(٢) روي عن أبي بكر مرفوعاً بسند ضعيف راجع مختصر المقاصد الحسنة ح رقم ١١٩ .

ومداخل الشيطان على الجاهل كثيرة لا نستطيع إحصاءها ويكفيك أن تعرف أن كل المداخل منها تتفرع .

## ٢ - الغضب :

الغضب من مداخل الشيطان الكبرى ومكائده العظمى ؛ لأن الشيطان يلعب بالغضب كما يلعب الأطفال بالكرة والمشاهدة أكبر دليل على ذلك .

يقول أبو حامد الغزالي - رحمه الله - : «يتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستوي على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بها ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه مثل الكهف الذي اضطربت فيه نار فاسود جوه وحمي مستقره وامتألت بالدخان جوانبه ، وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظًا .

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر : تغير اللون وشدة ارتعاد الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمّر الأحداق، وتقلب المناخر وتستحيل الخلقه ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن ، هذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوبه ولطم نفسه وقد يضرب بيده على الأرض وقد يضرب الجمادات ويتعاطى أفعال المجانين .

أما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضممار السوء والشماتة بالمسآت والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من

القبائح ا هـ ملخصاً<sup>(١)</sup>.

وكلما فتر الغضب أثاره الشيطان بمثل قوله هو مستهزئ بك، لا بد أن تنتقم وغير ذلك مما يثير الغضب، ومن هنا وجب على المسلم العاقل أن يغلب شيطانه ويكظم غيظه ويلتمس العذر لغيره.

روى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر على قوم يصطرون فقال: ما هذا؟ قالوا: فلان ما يصارع أحداً إلا صرعه.. قال: «أفلا أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل كلمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه» قال الحافظ: سنده حسن<sup>(٢)</sup>.

فالقوة الحقيقية هي التحكم في النفس عند الغضب فلا ينطق بسوء ولا يتلفظ بفحش ولا يمضي غيظه كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>.

والصرعة بضم الصاد وفتح الراء: الذي يصرع الناس ويغلبهم وهو المقصود هنا. «وأما الصرعة» بسكون الراء فهو الضعيف الذي يصرعه الناس ويغلبونه. ولذلك رغب النبي ﷺ في كظم الغيظ وترك الغضب، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: «دلني على عمل يدخلني الجنة». قال رسول الله ﷺ: «لا تغضب ولك الجنة»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني قال: «لا تغضب» فردد مراراً قال: «لا تغضب»<sup>(٥)</sup> رواه البخاري وزاد أحمد في رواية: قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله.

(١) الإحياء (٦٤٣).

(٢) فتح الباري (١٠ / ٥١٩).

(٣) رواه البخاري (١٠ / ٥١٨ فتح)، مسلم (١٦ / ١٦٢ بشرح النووي).

(٤) قال الحافظ المنذري رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح الترغيب (٥ / ١١٥).

(٥) البخاري (١٠ / ٥١٩ فتح).

وعن عبد الله بن عمرو قال : سأل رجل رسول الله ﷺ : ما يبعثني من غضب الله ؟ قال ﷺ : « لا تغضب » قال الحافظ العراقي : رواه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن (١).

ولا يمكن لأدمي معتدل الخلق أن يتخلى عن غريزة الغضب التي عليها جبل وبها طبع ولكن عليه أن يقطع الآثار المهيجة للغضب كعزة النفس والكبر وغير ذلك .

قال علي بن زيد : أغلظ رجل من قریش لعمر بن عبد العزيز القول فقال عمر : أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان فأنا لك منك اليوم ما تناله مني غداً انصرف رحمك الله (٢).

تسكين الغضب: فإذا غضب فعليه أن يسكن غضبه ويهدئ من ثورته وذلك بعدة أمور :

**الأول** - أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . فعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبي ﷺ فقال : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» . فقام إلى الرجل ممن سمع النبي ﷺ فقال : هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال : لا . قال إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل : أمجنون تراني؟ (٣).

**الثاني** - أن يتذكر ثواب كظم الغيظ وأجره العظيم فيكظم غيظه رغبة فيما عند الله تعالى ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ما من جرعة - أعظم أجراً عند الله - غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله» (٤) . رواه ابن ماجه قال المنذري ورواته محتج بهم في الصحيح .

(١) تخريج الإحياء ١٦٣٨ .

(٢) أدب الدنيا والدين ٢٣٣ .

(٣) البخاري (١٠ / ٥١٩ فتح) ، مسلم (١٦ / ١٦٣ بشرح النووي).

(٤) رواه ابن ماجه (٢ / ١٤٠١) وفي الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات .

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه كلهم من طريق عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كظم غيظاً وهو قادر أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رءوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء»<sup>(١)</sup>.

الثالث - أن يسكت ؛ لأنه يكون أقرب إلى الخطأ في هذه الحالة فالسكوت أسلم كما قيل :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهِ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِبَابَتِهِ السُّكُوتُ  
سَكَتٌ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي عَيَّتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيَّتُ

وقال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»<sup>(٢)</sup>.

وروى أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس مرفوعاً «إذا غضبت فاسكت»<sup>(٣)</sup>.

الرابع - أن يجلس أو يضطجع لما رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن أبي ذر مرفوعاً : «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه أبو داود (٤ / ٢٤٨) والترمذي (٣ / ٢٥١) وابن ماجه (٢ / ١٤٠٠) وقال الترمذي : حسن

وهو كما قال عبد الرحيم بن ميمون احتج به ابن خزيمة والحاكم أيضاً وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ : لا بأس به إلا في روايات زبان عنه وهذه الرواية ليست منها كما ترى .

(٢) البخاري (١٠ / ٤٤٥ فتح) ، مسلم (٢ / ١٨ بشرح النووي) .

(٣) ولا يصح ؛ لأنه من طريق ليث بن أبي سليم وليث هذا ضعفه النسائي ويحيى بن معين وقال عنه الحافظ : صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك .

(٤) رواه أبو داود (٤ / ٢٤٩) عن بكر أن النبي ﷺ بعث أبا ذر فذكره .

الترغيب والترهيب (٥ / ١١٨) قال الحافظ العراقي : سند أحمد جيد . قلت : وفي النفس من هذا

شيء ؛ فإنه رواه من طريق أبي حرب بن أبي الأسود عن أبي ذر ، قال المنذري : وقد قيل إن أبا حرب إنما يروي عن عمه عن أبي ذر ولا يحفظ له سماع من أبي ذر اهـ .

وبهذا تظهر لنا علة الانقطاع فيه فالله أعلم . ثم وجدت له طريقاً أخرى عند أبي داود (٢٤٩/٤) وبهذا يكون الحديث حسناً .

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات ، ألا وإن منهم البطيء الغضب السريع الفيء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك ، ألا وإن منهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض» وقال الترمذي : حديث حسن .

الخامس - أن يتفكر في قبح منظره عند الغضب فإن هذا مما يسكنه . أما أحاديث الوضوء عند الغضب فلا يصح منها شيء فيما أعلم .

السادس : أن يتذكر جزاء الصفح وثوابه عند الله تعالى فيدفعه ذلك إلى تحمل جهل الجاهل وسفه السفیه ابتغاء مرضات الله وما عنده من الثواب العظيم .

قال تعالى في صفة المتقين : ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> فالمسلم عندما يكظم غيظه يضع نفسه في عداد المتقين فإذا عفا وسامح ارتفع إلى درجة المحسنين . قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ «الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله ، وخضع لهم عدوهم» ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به<sup>(٢)</sup> .

وروي عن الحسن البصري أنه قال : «من علامات المسلم : قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق وقصد في غنى ، وتحمل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وصبر في شدة ، ولا يغلبه الغضب ولا تجمع به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤ .

(٢) رواه البخاري - كتاب التفسير - سورة فصلت .



وَأَصْفَحُ عَنْ سَبَابِ النَّاسِ حَلْمًا      وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السَّبَابَا  
وَمَنْ هَابَ الرَّجَالَ تَهَيَّبُوهُ      وَمَنْ حَقَرَ الرَّجَالَ فَلَنْ يَهَابَا

واعلم أن الغضب نوعان: إما أن يكون الغضب للنفس وهذا مذموم، وقد تقدم بيانه وإما أن يكون لله وهذا محمود بل مندوب فقد كان النبي ﷺ وهو الرؤوف الرحيم - إذا ما رأى مخالفة شرعية غضب واحمر وجهه ولم يسكت حتى يغيرها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وفي بيتي قرام - أي ستر - فيه صور فتلون وجهه ثم تناول الستر فتهتكه ثم قال: «من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور»<sup>(١)</sup>.

ورأى رسول الله ﷺ في قبلة المسجد نخامة فحكها بيده وتغيظ وقال: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة فإن الله حيال وجهه، فلا يتنخمن حيال وجهه في الصلاة»<sup>(٢)</sup> ومن هنا يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يغضب إذا انتهكت حرمت الله.

### ٣ - حب الدنيا:

لقد زينها الشيطان وزخرفها في قلوب كثير من الناس فركنوا إليها واطمأنوا بها بل وعضوا عليها بنواجذهم ونشبوها فيها أظفارهم ففيها يعادون وعليها يتنافسون ومن أجلها يتباغضون ويتحاسدون، ونفذ فيهم إبليس خطته حيث قال: «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»<sup>(٣)</sup>. ويا أسفاه لقد اتبعوه وأطاعوه إلا من اعتصم بالله ولجأ إليه ورمى الدنيا خلف ظهره: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»<sup>(٤)</sup>.

ولو عرف الناس حقيقة الدنيا ما أقاموا لها وزناً ولا جعلوا لها في قلوبهم مكاناً ولا

(١) رواه البخاري (١٠ / ٥١٧ فتح)، مسلم (١٤ / ٨٨ بشرح النووي).

(٢) رواه البخاري (١ / ٥٠٩ فتح)، مسلم (٥ / ٣٨ بشرح النووي).

(٣) سورة الحجر الآية ٣٩.

(٤) سورة سبأ الآية ٢٠.

على ألسنتهم ذكراً والله خالقها قد بين حقيقتها فقال: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ، وما الحياة الدنيا إلا متاعٌ الغرور﴾<sup>(١)</sup>.

فالحياة لعب ولهو وزينة والعاقل من جعلها مزرعة للآخرة ولذلك نادانا الله تعالى بعد هذه الآية قائلاً: ﴿سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾<sup>(٢)</sup>. وكما حذرنا الله من الدنيا حذرنا منها رسوله ﷺ أيضاً. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»<sup>(٥)</sup> وفي رواية: «كفافاً» رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه.

وعن عبد الله بن الشيخير رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفנית أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.

(٢) سورة الحديد الآية ٢١.

(٣) رواه مسلم (١٧ / ٥٥ بشرح النووي).

(٤) رواه مسلم (٧ / ١٤٥ بشرح النووي)، الترمذي (٦/٤) وابن ماجه (٢ / ١٣٨٦).

(٥) رواه البخاري (١١ / ٢٨٣)، مسلم (١٨ / ١٠٥ بشرح النووي).

(٦) رواه مسلم (١٨ / ٩٤ بشرح النووي).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال : «أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم؟» فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : «أتحبون أنه لكم؟» قالوا : والله لو كان حياً لكان عيباً فيه ؛ لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال : «والله للدنيا أهون على الله عز وجل من هذا عليكم»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم أو متعلم»<sup>(٢)</sup> رواه ابن ماجه والبيهقي والترمذي

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» رواه أحمد والبيهقي وقال المنذري في الترغيب (١٨/٦) : إسناده جيد .

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»<sup>(٣)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

ولقد طغى حب الدنيا في قلوب بعض الناس حتى عبدوها من دون الله !! فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط»<sup>(٤)</sup>.

ولو عرفوا قيمتها بالنسبة للآخرة لرفضوها وطلبوا الآخرة فقد قال رسول الله ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم» . وأشار

(١) رواه مسلم (١٨ / ٩٣ بشرح النووي).

(٢) رواه الترمذي (٣ / ٣٨٤) ، ابن ماجه (٢ / ١٣٧٧) وقال الترمذي : حسن غريب .

(٣) رواه البخاري (١١ / ٢٤٣ فتح) ، مسلم (١٨ / ٩٥ بشرح النووي).

(٤) رواه البخاري (١١ / ٢٥٣ فتح).

يحيى بن يحيى بالسبابة، «فليُنظر بـم يرجع»<sup>(١)</sup>.

وفي صحيح البخاري عن سهل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»<sup>(٢)</sup>.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: «رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافاً».

وقال أيضاً رحمه الله: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره». وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً: من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها».

وقال أيضاً في وصف الدنيا: «هي دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب ومتشابها العقاب».

وقال مالك بن دينار: «بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك».

وقال الحسن: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا. وقال بعضهم: «يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوف بعملك كأن منفعته إلى غيرك».

وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: إنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه.

(١) رواه مسلم (١٧ / ١٩٢) بـشرح النووي.

(٢) رواه البخاري (١١ / ٢٣٢) فتح.

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة .

وقال مالك بن دينار : اصطلحنا على حبِّ الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ولا يدعنا الله على هذا فليت شعري ، أي عذاب الله ينزل علينا .

وقال الشافعي رحمة الله عليه : «الدنيا دار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إفسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارض برزق الله ، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك ظل زائل ، وجدار مائل ، أكثر من عمك ، واقصر من أملك» .

وقال علي - كرم الله وجهه : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قد قطعوه ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تمرحوا لمتاعها ونعمائها فإنها إلى زوال ، عجيب لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه .

وقد قيل :

نَسِيرٌ إِلَى الْأَجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ  
وَكَمْ أَرَّ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ  
وَمَا أَفْبَحَ التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الصَّبَا  
تَرَحَّلَ مِنَ الدُّنْيَا بِرِزَادٍ مِنَ التَّقَى  
وَأَيَّامَنَا تَمْضِي وَهِنَّ مَرَّاحِلُ  
إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بِأَطْلُ  
فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَاغِلُ  
فَعُمُرُكَ أَيَّامٌ وَهِنَّ قَلَائِلُ

وقال الإمام البخاري رحمه الله :

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعِ  
كَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ سَقَمِ  
فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَعْتَهُ  
ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهُ (١)

وقيل أيضاً :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ      وَمَا خَيْرٌ عَيْشٍ لَا يَكُونُ بِدَائِمٍ  
تَأْمَلُ إِذَا مَا نِلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً      فَأَفْنِيهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمٍ

واعلم أن حب الدنيا إذا طغى على القلب فتح للشيطان باباً آخر ألا وهو:

٤ - طول الأمل :

فإن العبد إذا طال أمله سوف في عمله وعمره دنياه وخرب أخراه . قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين : في حب الدنيا ، وطول الأمل »<sup>(١)</sup>.

قال البخاري : قال علي بن أبي طالب : « ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة : ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل » هكذا رواه معلقاً<sup>(٢)</sup>.

وقد قيل :

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقَطَعُهَا      وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجْلِ  
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا      فَإِنَّمَا الرِّيحُ وَالْحُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ

وقيل أيضاً :

مَضَى أَمْسُكَ الْمَاضِي شَهِيدًا مُعَدَّلًا      وَأَعَقَبَهُ يَوْمٌ عَلَيْكَ جَدِيدٌ  
فَإِنْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً      فَشَنْ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدٌ  
فِيَوْمِكَ إِنْ أَعَقَبْتَهُ عَادَ نَفْعُهُ      عَلَيْكَ وَمَاضِي الْأَمْسِ لَيْسَ يَعُودُ  
وَلَا تُرْجَى<sup>(٣)</sup> فِعْلُ الْخَيْرِ يَوْمًا إِلَى غَدٍ      لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدٌ

(١) رواه البخاري (١١ / ٢٣٩ فتح) ، مسلم (٧ / ١٣٨ بشرح النووي).

(٢) فتح الباري (١١ / ٢٣٥).

(٣) الإرجاء : التأخير.

وقال الحسن البصري : نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بدمك وكذلك ليلتك .

وقال الجاحظ : وجد مكتوباً في حجر : «يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك ، أسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب»<sup>(١)</sup> .  
وقال بعضهم :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا مَقِيلٌ لِرَاكِبٍ قَضَى وَطَرًا مِنْ مَنْزِلٍ ثُمَّ هَجَرَ

فَرَّاحَ وَلَا يَدْرِي عَلَامَ قُدُومِهِ؟ أَلَا كُلُّ مَا قَدَّمْتَ يَبْقَى مَوْفُورًا

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول : «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك»<sup>(٢)</sup> .

ففي هذا الحديث بين لنا رسول الله ﷺ أن المسلم في الدنيا غريب عن وطنه الأصل ألا وهو الجنة التي أخرج أبوه آدم منها فلا بد أن يجتهد ليعود إليه .  
وفي هذا المعنى يقول ابن القيم - رحمه الله :

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمَخِيمُ  
وَلَكِنَّا سَبِيُّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنَسَلُمُ  
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهُوَ مَغْرَمُ  
وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي لَهَا أَضْحَتِ الْأَعْدَاءُ فِينَا نَحْكُمُ<sup>(٣)</sup>

(١) أدب الدنيا والدين ١٠٢ .

(٢) رواه البخاري (١١ / ٢٣٣ فتح) .

(٣) حادي الأرواح ٨ .

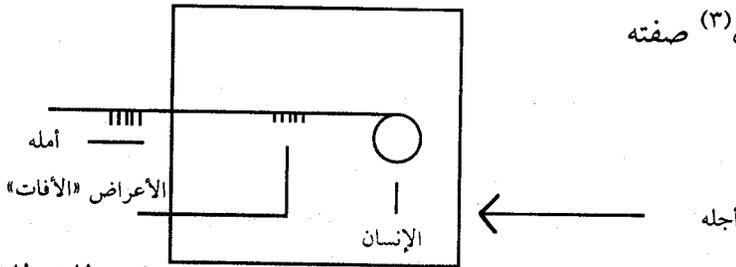
وكان عطاء السلمى يقول في دعائه : «اللهم ارحم في الدنيا غربتي ، وارحم في القبر وحشتي ، وارحم موقفي غداً بين يديك»  
وقال بعضهم :

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ      وَلَا بُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرٍ  
وَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَمَلٍ عُدَّةٍ      وَلَا سِيِّمًا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرٍ

وروى الحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه : «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك» . قال الحافظ : وأخرجه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون<sup>(١)</sup> .

وهذا رسول الله ﷺ بين للصحابة قصر أجل الإنسان مع طول أمله مستعيئا في ذلك بالرسم الهندسي . ففي صحيح البخاري<sup>(٢)</sup> عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط النبي ﷺ خطأ مربعا ، وخط خطأ في الوسط خارجا منه ، وخط خطأ صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به - أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار : الأعراض ، فإن أخطأ هذه نهشه هذا ، وإن أخطأ هذا نهشه هذا» .

قال الحافظ : وهذه<sup>(٣)</sup> صفته



فإياك أخي المسلم وطول الأمل ، فإنه يورث سوء العمل ، بل ويفتح للشيطان بابا

(١) فتح الباري (١١ / ٢٣٥) .

(٢) رواه البخاري (١١ / ٢٣٦ فتح) .

(٣) فتح الباري (١١ / ٢٣٧) .

آخر ألا وهو :

### ٥ - الحرص :

والحرص مفسدة للدين أي مفسدة؟! ، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»<sup>(١)</sup> رواه الترمذي وقال : حسن صحيح وصححه ابن حبان .

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لكل أمة فتنه ، وفتنة أمتي المال»<sup>(٢)</sup> .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أشرب حب الدنيا التاظ منها بثلاث : شقاء لا ينفد عنه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، فالدنيا طالبة ومطلوبة ، فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يدركه الموت ، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه»<sup>(٣)</sup> .

وقد قيل :

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي حِلٍّ وَتَرَحَّالٍ      وَطُولِ سَعْيٍ وَإِدْبَارِ وَقَبَالِ  
وَنَازِحِ الدَّارِ لَا أَبْقِيكَ مُغْتَرِبًا      عَنِ الأَحْبَةِ لَا يَدْرُونَ مَا حَالِي  
بِمَشْرِقِ الأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَغْرِبِهَا      لَا يَخْطُرُ المَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَى بَالِي  
وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ      إِنَّ القُنُوعَ الغِنَى لَا كَثْرَةَ المَالِ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «ليس الغنى من كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس»<sup>(٤)</sup> .

قال القرطبي<sup>(٥)</sup> : معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس

(١) رواه الترمذي (٤ / ١٦) .

(٢) رواه الترمذي (٣ / ٣٨٩) وقال : حسن صحيح وصححه الحاكم وابن حبان .

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٦ / ١٧) : رواه الطبراني بإسناد حسن .

(٤) رواه البخاري (١١ / ٢٧١ فتح) ، مسلم (٧ / ١٤٠ بشرح النووي)

(٥) القرطبي هذا هو صاحب المفهم في شرح صحيح مسلم ، وهو شيخ القرطبي صاحب التفسير .

وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال، لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل، والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجد أبداً، والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أُعطي، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه ثم إذا فاته المطلوب، حزن وأسف، فكأنه فقير من المال؛ لأنه لم يستغن بما أُعطي، فكأنه ليس بغني. ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره علماً بأن الذي عند الله خير وأبقى فهو معرض عن الحرص والطلب، وما أحسن قول القائل:

غَنِ النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَلِكَ الْغِنَى فَقْرًا

اهـ (١)

وقد قيل:

أَرَاكَ يَزِيدُكَ الْإِثْرَاءُ حَرِصًا      عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لَا تَمُوتُ  
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْمًا      إِلَيْهَا قُلْتَ : حَسْبِي قَدْ رَضِيتُ

فإياك أخي المسلم والحرص فإنه يذهب الدين والشرف معاً ويفتح للشيطان باباً آخر

ألا وهو :

٦ - البخل

قال تعالى :

﴿الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢). فالشيطان يخوف الإنسان من الفقر لكي لا ينفق بما في يده في سبيل

(١) فتح الباري (١١ / ٢٧٢) .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

الله ويخيل إليه أنه إذا أنفق افتقر واحتاج ، ولكن الله يطمئن كل مؤمن موقن بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مبيّناً أن فضل الله لا منتهى له ورزق الله واسع وخزائنه ملأى لا تنفذ أبداً .

وعن أبي هريرة<sup>(١)</sup> رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول : أنا مالك ، أنا كنزك» ثم تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولقد بين الله تبارك وتعالى أن الفوز والفلاح في ترك البخل والشح فقال : ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً»<sup>(٤)</sup> .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله تعالى : يا عبدي أنفق أنفق عليك ، وقال : يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما بيده ، وكان عرشه على الماء ، ويده الميزان يخفض ويرفع»<sup>(٥)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول

(١) رواه البخاري (٣ / ٢٦٨ فتح) .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٠ .

(٣) سورة الحشر الآية ٩ .

(٤) رواه البخاري (٣ / ٣٠٤ فتح) ، مسلم (٧ / ٩٥ بشرح النووي) .

(٥) رواه البخاري (١٣ / ٣٩٣ فتح) ، مسلم (٧ / ٨٠ بشرح النووي) .

واليد العليا خير من اليد السفلى»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر»<sup>(٢)</sup>. رواه البخاري والنسائي.

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»<sup>(٣)</sup>.

والمراد بالحسد هنا الغبطة : وهي تمنى مثل ذلك وهذا لا بأس به بل ربما يكون طاعة ، أما الحسد المذموم فهو تمنى زوال النعمة وهو حرام .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال : «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره وللخادم مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئاً»<sup>(٤)</sup>.

#### ٧ - الكبر :

الكبر من مداخل الشيطان وبه يستذل الإنسان ويحمله على رد الحق والإصرار على الباطل ، والمتكبر جاهل لا يعرف حقيقة نفسه ولا حقيقة ربه ؛ لأنه لو عرف نفسه حق المعرفة لعلم أنه كان نطفة تشمئز منها النفس ثم علقه ثم مضغة ثم كان مولوداً صغيراً ضعيفاً فعلام التكبر !؟

ولما كان الكبر داءً مهلكاً حذر الله تعالى منه فقال سبحانه : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾<sup>(٥)</sup> . وقال أيضاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) رواه مسلم (٧/ ١٢٦ بشرح النووي) ، الترمذي (٤/٤).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٦٠ فتح).

(٣) رواه البخاري (٩/ ٧٣ فتح).

(٤) رواه البخاري (٣/ ٢٩٣ فتح) ، مسلم (٧/ ١١١ بشرح النووي).

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٧ .

مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا<sup>(١)</sup>.

وقال : ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾<sup>(٢)</sup> وقال :  
﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا﴾<sup>(٣)</sup>. والآيات في ذلك كثيرة.

وحذر النبي ﷺ من الكبر أيضاً وبين أن عاقبته وخيمة فقال : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»<sup>(٤)</sup>.

وقال النبي ﷺ قال الله تعالى : «العز إزاري ، والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئاً منهما عذبت»<sup>(٥)</sup>. رواه مسلم والبرقاني في المستخرج.

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر»<sup>(٦)</sup> متفق عليه. والعتل : هو الغليظ الجافي ، والجواظ : هو الضخم المختال في مشيته.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «احتجت الجنة والنار، فقالت النار : في الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة : في ضعفاء المسلمين ومساكينهم، ففضى الله بينهما إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشياء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشياء ولكليهما علي ملؤها»<sup>(٧)</sup>. رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ،

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٦.

(٣) سورة غافر الآية ٣٥.

(٤) رواه مسلم (٢ / ٨٩ بشرح النووي) ، الترمذي (٣ / ٢٤٣).

(٥) رواه مسلم (١٦ / ١٧٣ بشرح النووي).

(٦) رواه البخاري (٨ / ٦٦٢ فتح) ، مسلم (١٧ / ١٨٧ بشرح النووي).

(٧) رواه مسلم (١٧ / ١٨٣ بشرح النووي).

وعائل مستكبر»<sup>(١)</sup>. رواه مسلم والنسائي، والعائل هو الفقير.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل من كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خُسْفَ به وهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>. رواه البخاري والنسائي. والخيلاء: هو الكبر والعجب، ويتجلجل: أي يغوص وينزل فيها.

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، كبه الله لوجهه في النار» رواه أحمد والبيهقي في الشعب وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح<sup>(٤)</sup>.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصبيه ما أصابهم»<sup>(٥)</sup>. «يذهب بنفسه» أي يترفع ويتكبر.

وقال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: «وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»<sup>(٦)</sup>.

وقال الحسن البصري - رحمه الله: العجب من ابن آدم يغسل الخثر بيده كل يوم

(١) رواه مسلم (٢/ ١١٥) بشرح النووي.

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٢٥٨ فتح)، النسائي (٨ / ٢٠٦).

(٣) رواه البخاري (١٠ / ٢٥٨ فتح)، مسلم (١٤ / ٦٠) بشرح النووي.

(٤) تخريج الإحياء ١٩٣٤.

(٥) رواه الترمذي (٣ / ٢٤٤) وقال: حديث حسن غريب.

(٦) رواه الترمذي (٤ / ١٠٣) وقال: حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٢) على

مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات.

وقال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخًا ، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى في غير ذات الله .

وروي أن مطرف بن عبد الله الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال : يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أولك نطفة مدرة، وأخرك جيفة قدرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة، فترك المهلب مشيته هذه.

فأخذ ابن عوف هذا الكلام ونظمه شعراً فقال :

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ	وَكَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً مَدْرَةً
وَفِي غَدٍ بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ	يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَدْرَةً
وَهُوَ عَلَى تَيْهِهِ وَنَحْوَتِهِ	مَا بَيْنَ ثَوْبِيهِ يَحْمِلُ الْعَذْرَةَ (١)

وعن أبي بكر الهذلي قال : بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف شامخ بأنفه ثاني عطفه ، مصعر خده ، ينظر في عطفه ، أي حميق أنت ، تنظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير مأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدي حق الله منها ، وفي كل عضو من أعضائك لله نعمة ، وللشيطان به لفته ، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إليّ وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢).

(١) أدب الدنيا والدين ٢٠١

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٧.

### أنواع المتكبرين :

١ - من الناس من يتكبر بملكه أو مكانته الاجتماعية ويقوي هذا الكبر ويعظمه كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسباً، والتملق خديعة وملعباً فيمدحونه بما ليس فيه ويرفعونه فوق شأنه ومرتبته فيظن ذلك حقاً فيزداد كبراً. وقد قيل : عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟! .

وقال الشاعر :

يَا جَاهِلًا غَرَّهُ إِفْرَاطُ مَادِحِهِ      لَا يَغْلِبَنَّ جَهْلُهُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمُكَ بِكَ  
أَنْتَى وَقَالَ بِلاَ عِلْمٍ أَحَاطَ بِهِ      وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَحْضُولِ مِنْ رَبِّكَ

وهذا النوع من الكبر منتشر في الملوك والرؤساء ، ولذلك يجب عليهم أن يبعدوا عنهم بطانة السوء التي تزين لهم سوء أفعالهم ولا تبين لهم قبيح أعمالهم فترديهم وتهلكهم . وهؤلاء الملوك لو عقلوا لعلموا أن الملك أيام لا تدوم، ولو دام لغيرهم ما وصل إليهم ، ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْنِي الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّقُ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) فلا يبقى لهم إلا السيرة الحسنة أو السيئة .

٢ - ومن الناس من يتكبر بماله وهذا مغفل جاهل ؛ لأنه لو كان عاقلاً لعلم أن المال عارية يمكن أن يأخذه الله في أي وقت وبأي سبب كصاحب الجنة الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبسب هذه أبداً، فأرسل الله تعالى على جنته حساباً من السماء فتركها خاوية على عروشها .

وكفارون الذي تكبر بماله الذي كثر حتى إن مفاتيح الخزائن لا يستطيع حملها سبعة من الرجال الأقوياء ، فحسف الله تبارك وتعالى به الأرض هو وماله فكانت عاقبته الخسران المبين . . . ولو أن الله ابتلى ذلك الغني بمرض لتمنى أن يؤخذ منه ماله كله

وترد إليه صحته. كما روي أن ملكاً من ملوك المسلمين طلب كوباً من ماء ليشرب، فجاءه الخادم بالكوب وقال له : أيها الملك لا تشرب حتى أسألك سؤالاً. قال سل، قال : إذا منع منك هذا الكوب فبكم تشتريه؟ قال الملك : بنصف ملكي. قال : فإذا شربته ووقف في مثانتك فلم ينزل ، فكم تدفع حتى تنزله؟ قال ملكي كله. قال : إذا فملكك لا يساوي بولة واحدة.

٣ - ومن الناس من يتكبر بقوته وصحته ، وهذا رجل غافل؛ لأن القوة ليست هي مقياس الشرف بين الناس، وهل قوة هذا الرجل تكافئ قوة حمار أو بغل؟. ولو كانت القوة هي المقياس لاستحق الحمار أن يكون مديراً، والبغل أن يكون وزيراً والفيل أن يكون رئيساً. ولكن المدار على العقل، فبه يصل الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه، وبه يسير الإنسان في الناس سيراً حسناً. وهو الذي يجنب صاحبه المضار والمهالك، وقد نسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الآيات الآتية:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُّطَهَّرَةٌ	فَالْعَقْلُ أَوْلَاهَا وَالِدَيْنُ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا	وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِيهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا	وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللَّيْنُ عَاشِيهَا <sup>(١)</sup>

فانظر - هداك الله - إنه لم يعد القوة والفتوة من المكارم؛ لأنها لا تكون مفخرة إلا إذا استخدمت في الخير والصلاح.

وقد روي أن أبا حنيفة - رحمه الله - كان يلقي على تلامذته درس فقه وكان ماداً رجليه فدخل المسجد رجل حسن الهيئة فارح الطول وأتى حلقة أبي حنيفة ليستمع، فضم أبو حنيفة رجليه احتراماً للقادم وظل يلقي درسه حتى وصل إلى قوله : «وقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر من السماء» فقال هذا الرجل: يا شيخ أرايت إن لم تغرب الشمس؟ فقال أبو حنيفة : الآن آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه.

وقد قيل :

يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ  
يَشِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قَلَّةُ عَقْلِهِ  
يَعِيشُ الْفَتَى فِي النَّاسِ بِالْعَقْلِ إِنَّهُ  
وَأَفْضَلُ قَسَمُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ  
إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ  
وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهُ  
وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَافُهُ وَمَنَاسِبُهُ  
عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهُ  
فَلَيْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهُ  
فَقَدْ كَمَلْتَ أَخْلَاقَهُ وَمَارَبَهُ (١)

٤ - ومن الناس من يتكبر بعلمه ، وهذا أجدر به أن يسمى جاهلاً؛ لأن العلم إن لم يزد صاحبه تواضعاً وخشية فليس بعلم نافع . فالعلم علمان : علم على اللسان وعلم في القلب ، فأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على خلقه ، وأما الذي في القلب فهو الخشية (٢) .

وعن أسامة بن يزيد رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه (٣) فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون : يا فلان ما شأنك ؟ أأنت كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأناهاكم عن الشر وآتية» متفق عليه . وكيف يسمى الرجل عالماً وبه آفة الكبر وقد قيل :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ  
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِدِي السَّقَامِ وَذِي  
أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَأَنْهَهَا عَنْ غِيَّهَا  
فَهُنَاكَ تُعْذِرُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى  
لَا تَنَّهُ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ  
هَلَا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ  
الضَّنَى كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمِ  
فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمِ  
بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيمِ  
عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمِ

(١) أدب الدنيا والدين ٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم (٨ / ١١٨) بشرح النووي .

(٣) أقتابه : أمعاظه .

٥ - ومن الناس من يتكبر بجماله وحسن صورته وهذا أكثر ما يكون في النساء ، ولو عقلت المتكبرة بجمالها لعلمت أن الجمال من نصيب الدود ولو تخيلت صورتها في القبر بعدما أكل الدود لحومها وعينها ومنخرها، لرأت منظر مرعباً مخيفاً، بل إن الجمال في الدنيا معرض للآفات والأمراض فكم من مرض ترك الجميلة شوهاً والفاقة نكراء، فينفر منها الناس بعدما كانوا يتلهفون على رؤيتها.

وقد قيل :

انظُرْ خَلَاقَ فَإِنَّ النَّتْنَ تَثْرِبُ	يَا مُظْهَرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ
مَا اسْتَشَعَرَ الْكِبَرَ شَبَانٌ وَلَا شَيْبُ	لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ
وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَقْدَارِ مَضْرُوبُ	هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ مِثْلُ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ
وَالْعَيْنُ مَرْفُضَةٌ وَالشَّغْرُ مَلْعُوبُ	أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحَهَا سَهْكَ
أَقْصِرْ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبٌ <sup>(١)</sup>	يَا ابْنَ التُّرَابِ وَمَأْكُولِ التُّرَابِ غَدًا

مظاهر الكبر :

١ - رد الحق : من مظاهر الكبر أن الإنسان الذي يتبين له خطؤه ولا يرجع إلى الحق ولا يقبله ، إنما يكون الدافع الوحيد له على ذلك هو الكبر ، فكم من شيخ كبير أو عالم مشهور ناقشه تلميذ صغير في مسألة وتبين له خطؤه ولكنه لم يرجع إلى الحق أنفةً وكبراً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما قيل :

لَمَّا آتَى مِنْ أَصْغَرِ الْأَبْنَاءِ	لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الْهُدَى
وَرَمَوْهُ بِالتَّعْقِيدِ وَالْإِعْيَاءِ	بَلْ حَارِبُوهُ بِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ

هذا في كثير من علماء زماننا ، أما علماء السلف رحمهم الله فقد كانوا يقبلون الحق أينما كان ، فهذا أبو حنيفة - رحمه الله - يقول : تعلمت نسك الخلق من الخلاق . وهذا الإمام مالك يرجع إلى قول تلميذه الصغير محمد بن إدريس الشافعي في مسألة

من مسائل الطلاق.

٢ - ومن مظاهر الكبر أيضاً : احتقار الناس وازدراؤهم والتعالي عليهم ولقد جمع النبي ﷺ مظاهر الكبر في قوله : «الكبر بطر الحق وغمط الناس»<sup>(١)</sup>.

ولما كان الكبر من مداخل الشيطان ومكايده فلا يمكن التخلص من هذه المكيدة إلا بالتواضع.

عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد». رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما تواضع أحد لله إلا رفعه» رواه مسلم والترمذي.

#### ٨ - حب المدح :

اعلم أخي المسلم أنك إذا أحببت المدح فقد دخل عليك الشيطان من باب العجب وهو داء مهلك ، هذا إن كنت تمدح بما فيك ويمكنك التخلص منه بأن تتذكر عيوبك وذنوبك فما من إنسان إلا وله عيوب خفية كما قال أحد الصالحين لرجل مدحه : لو أن للذنوب ريحاً ما استطاع أحد أن يقترب مني .

أما إذا كان المدح بما ليس فيك فالفرح بذلك جنون ، قال بعض الحكماء : من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه . وقال ابن المقفع : قابل المدح كما مدح نفسه<sup>(٢)</sup>.

وقد قيل :

وَمَا شَرَفٌ أَنْ يَمْدَحَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ  
وَمَا كُلُّ حِينَ يَصْدُقُ الْمَرْءُ ظَنَّهُ  
وَلَكِنَّ أَعْمَالَ تَذُمَّ وَتَمْدَحُ  
وَلَا كُلُّ أَصْحَابِ التَّجَارَةِ يَرْبِحُ  
وَلَا كُلُّ مَنْ تَرَجُّو لِعَيْبِكَ حَافِظًا  
وَلَا مَنْ ضَمَّ الْوَدِيعَةَ يَصْلِحُ<sup>(٣)</sup>

(١) رواه مسلم (٢ / ٨٩ بشرح النووي).

(٢) أدب الدنيا والدين ٢١٣ .

(٣) السابق ٢١٤ .



الحالة الثانية : أن يمتعض في الباطن على الدام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن معاقبته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان ولكن بالإضافة إلى ما قبله كمال .

والحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال ، أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة .

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة . أن يكره المدح ويمقت المادح إذ يعلم أنه فتنة له قاصمة لظهره مضرة له في الدين ، ويحب الدام إذ يعلم أنه مُهدٍ إليه عيوبه ومرشده إلى ذنوبه اهـ . ملخصاً<sup>(١)</sup> .

ولهذا وغيره أمر النبي ﷺ بحثو التراب في وجوه المداحين فقد رأى المقداد رضي الله عنه رجلاً يمدح عثمان رضي الله عنه فعمد المقداد فجثا على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه الحصباء فقال له عثمان : ما شأنك؟! فقال : إن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيت المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»<sup>(٢)</sup> رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

#### ٩ - الرياء :

إن الرياء باب فسيح من الأبواب التي يلج الشيطان منها إلى قلب الإنسان ولذلك يجب على المسلم الذي يريد الله والدار الآخرة أن يحص في قلبه فإن وجد فيه التفاتاً لغير الله سارع بعلاجه ، وأن يفتش في أعماله فإن وجد فيها شبهة من رياء طهرها ، ولما كان الرياء هو التفات القلب لغير الله وترك مراعاة الخالق مع مراعاة المخلوقين سُمي شركاً أصغر<sup>(٣)</sup> .

فقد قال النبي ﷺ : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : «الرياء» يقول الله عز وجل إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم

(١) الإحياء ١٨٥٧ .

(٢) رواه مسلم (١٨ / ١٢٨ بشرح النووي)، الترمذي (٤ / ٢٦) ابن ماجه (٢ / ١٢٣٢) .

(٣) صححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٧) .



ولذلك كان السلف الصالح رضي الله عنهم يخفون طاعاتهم كما يخفي الناس معاصيهم وعيوبهم .

واعلم أن الدافع على الرياء هو الطمع في مدح الناس وخوف مذمتهم ، ويمكن التخلص من الرياء بالأمر الآتية :

١ - أن تعلم أن مدح الناس لا ينفحك إن كنت عند الله مذموماً ، وذمهم لا يضرك إن كنت عند الله محموداً .

٢ - أن تعلم أن المخلوق الضعيف الذي تطلب مدحه لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً خاصة يوم فقرك الأكبر وحاجتك العظمى .

٣ - أن تعلم أن الرياء يحبط العمل وربما حوله إلى كفة السيئات .

٤ - إن كنت تخشى اطلاع الناس على خبث باطنك وسواد قلبك في الدنيا فالله تعالى مطلع على ذلك وسيفضحك يوم القيامة أمام الجمع الأكبر وعلى رءوس الأشهاد .

٥ - إذا خطر عليك خاطر من الرياء فلتقم بمدافعته والتخلص منه ثم الالتفات إلى الله بقلبك .

واعلم أن الشيطان يدعوك أولاً لترك العمل ، فإن عجز دعاك إلى الرياء فيه ، فإن وجد منك إخلاصاً قال لك هذا العمل ليس خالصاً وأنت مرء ، وتعبك ضائع حتى يحملك على ترك العمل فانتبه - حفظك الله - ولا تطع الشيطان فإنه عدو مضل مبين .

يقول الغزالي - رحمه الله - : والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب :

الأولى : أن يرد على الشيطان ويكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدل معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريض على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك .

الثانية : أن يعرف أن الجدل والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته .

الثالثة : ألا يشتغل بتكذيبه أيضاً؛ لأن ذلك وقفة وإن قلَّت ، بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحباً للكرهية غير مشغول بالتكذيب ولا بالمخاصمة .

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده فيعزم على أنه كلما نزع الشيطان زاد هو في الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان .

يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلاناً يذكرك - أي بسوء - فقال : والله لأغیظن من أمره . قيل ومن أمره ؟ قال : الشيطان . ثم قال : اللهم اغفر له .

وإذا عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة أن يزيد في حسناته قال : وضرب الحارث المحاسبي لهذه الأربعة مثلاً أحسن فيه فقال : مثلهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً ، فحسداهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره .

فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع . ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاءه بالكلية . ومر الرابع فلم يتوقف وأراد أن يغيظه فترك التأنى وأسرع في المشي ، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير<sup>(١)</sup> .

ولهذا كان كثير من السلف إذا ألهاهم الشيطان عن طاعة فعلوها مضاعفة غيظاً للشيطان .

وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الإثم فلا يطعه وليحدث عند

ذلك خيراً فإذا رآه كذلك تركه .

### الرياء والأجر :

اعلم - هداك الله - أن الرياء إما أن يدخل في أصل العمل أو في أوصافه فإن دخل في أصل العمل ، يعني كان هو الدافع والباعث عليه بطلَ بالإجماع .  
وإن دخل الرياء في أوصاف العمل كطول في ركوع أو سجود ، ففيه قولان أحدهما يبطله والآخر لا يبطله ولكن ينقص من أجره .

### ١٠ - العُجْبُ :

العُجْبُ يختلف عن الكبر ، فالكبر له ثلاثة أركان : متكبر ، ومتكبر به ، ومتكبر عليه ، والعجب ليس له إلا ركنان اثنان: معجب ومعجب به فقط ، ولكن العجب هو الدرجة الأولى في سلم الكبر فنعوذ بالله منهما .

والعجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم .

والعُجْبُ أنواع : فمن الناس من يعجب بصحته وقوته وتناسب أعضائه وحسن صورته ، فليعلم أن ذلك من نصيب الدود وأن كل من عليها فان .

ومن الناس من يعجب بعقله وفطنته واستكشافه لبطائن الأمور الدينية والدنيوية وثمرة هذا العجب أن تجده مستبدأً برأيه مستجهلاً لغيره معرضاً عن سماع آراء الآخرين . فليفكر هذا العاقل فيما لو ابتلاه الله بمرض في دماغه لجن عقله وطار لبه ، وذهب فكره ، فليحمد الله على العافية وليشكره على النعمة .

ومن الناس من يعجب بنسبه ويظن أنه ناجح لا محالة ، أليس هو ابن فلان المنسب من الحسن أو الحسين؟ فليعلم هذا الغافل أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه وأن النبي ﷺ نادى أقرب الناس إليه «يا فاطمة : اعملى فإنني لا أغني عنك من الله شيئاً» متفق عليه<sup>(١)</sup> .

ومن الناس من يعجب بكثرة أولاده وأهله وعشيرته وهذا يكفيه قول الله تعالى :

(١) رواه البخاري (٨ / ٥٠١ فتح) ، مسلم (٣ / ٧٩ بشرح النووي) .



قال أبو الليث السمرقندي - رحمه الله - : من أراد أن يكسر العجب فعليه بأربعة أشياء :

أولها : أن يرى التوفيق من الله تعالى ، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى فإنه يشتغل بالشكر ولا يعجب بنفسه .

والثاني : أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها واستقل عمله ولم يعجب به .

والثالث : أن يخاف أن لا يتقبل منه فإذا اشتغل بخوف القبول لا يعجب بنفسه .

والرابع : أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك ، فإذا خاف أن ترجع سيئاته على حسناته فقد قل عجبه ، وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة ، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب . اهـ (١) .

### ١١ - الجزع والهلع :

إن الجزع من مراكب الشيطان التي يحمل بها الإنسان في بحار الخيالات والأوهام حتى يكبه في محيط الحيرة والأحزان .

أما المؤمن فإنه يركب مراكب الصبر ويخوض بها في بحار الرضا والتسليم حتى يصل إلى محيط الفرج وهناك سيجد بر الأمان .

أما عن أسباب الجزع فيقول أبو الحسن الماوردي : منها تذكر المصائب حتى لا يتناساه ، وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تستفزوا الدموع بالتذكر .

وقال الشاعر : ولا يبعث الأحزان مثل التذكر .

ومنها الأسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفاً ولا يجد لمفقوده بدلاً فيزداد بالأسف ولهاً وبالحسرة هلعاً ولذلك قال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (٢) .

(١) تنبيه الغافلين (٢٥٢) .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣ .



رَبِّمَا خَابَ رَجَاءٌ      وَأَتَى مَا لَيْسَ يُرْجَى

وقال بعضهم :

أَتَحْسَبُ أَنَّ الْبُؤْسَ لِلْحُرِّ دَائِمٌ      وَكَوْ دَامَ شَيْءٌ عَدَّهُ النَّاسُ فِي الْعَجَبِ  
لَقَدْ عَرَفْتُكَ الْحَادِثَاتُ بِبُؤْسِهَا      وَقَدْ أَدَبَتْ إِنْ كَانَ يَنْفَعُكَ الْأَدَبُ  
وَكَوْ طَلَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَرْفِ دَهْرِهِ      دَوَامَ الَّذِي يَخْشَى لِأَعْيَاهُ مَا طَلَبَ

ومنها أن يغري بملاحظة من حيطت سلامته ، وحرست نعمته حتى التحف بالأمن والدعة ، واستمتع بالثروة والسعة ، ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساوياً ، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافياً ، فلا يستطيع صبراً على بلوى ، ولا يلزم شكراً على نعمى ، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية ، وساواه في الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر ، وحن منه الفرج .

قال : وأنشدت لامرأة من العرب :

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ صَبِرًا      إِنْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا  
كَمْ رَأَيْنَا الْيَوْمَ حَرًّا      لَمْ يَكُنْ بِالْأَمْسِ حُرًّا  
مَلِكَ التَّبْرِ فَأُضْحَى      مَالِكًا خَيْرًا وَشَرًّا  
اشْرَبَ الصَّبْرُ وَإِنْ كَا      نَ مِنْ الصَّبْرِ أَمْرًا

قال وأنشدت لبعض أهل الأدب :

يُرَاعُ الْفَتَى لِلخَطْبِ تَبْدُو صُدُورُهُ      فَيَأْسُ وَفِي عُقْبَاهُ يَأْتِي سُورُهُ  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْلَ لَمَّا تَرَ كَمَتُ      دُجَاهُ بَدَأَ وَجْهَ الصَّبَّاحِ وَنُورُهُ  
فَلَا تَصْحَبَنَّ الْيَأْسَ إِنْ كُنْتَ عَالِمًا      لَبِيًّا فَإِنَّ الدَّهْرَ شَتَّى أُمُورُهُ

اهـ (١) ملخصاً



وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « شر ما في الرجل : شح هالع وجبن خالع »<sup>(١)</sup> رواه الإمام أحمد وأبو داود بسند حسن .

فإن تخلص الإنسان من الجزع والهلع فتح على نفسه باب الصبر والفرج ، ولذلك قال النبي ﷺ : « الصبر ضياء »<sup>(٢)</sup> . أي يضيء للإنسان في ظلمات الحيرة ليرى الفرج قد اقترب والمحنة قد انكشفت والغمة قد انحلت .

### والصبر أنواع :

فالأول : صبر على المصائب والبلايا سواء كانت في الجسد أو في الأهل والولد أو في المال أو غير ذلك .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال<sup>(٣)</sup> : « يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه<sup>(٤)</sup> من أهل الدنيا ثم احتسبه<sup>(٥)</sup> إلا الجنة » رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر ، عوضته منهما الجنة » يريد عينيه رواه البخاري<sup>(٦)</sup> .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال<sup>(٧)</sup> : « ما يصيب المسلم من نصب<sup>(٨)</sup> ولا وصب<sup>(٩)</sup> ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود (١٢ / ٣) بسند جيد .

(٢) رواه مسلم (٣ / ١٠١ نووي) .

(٣) رواه البخاري (١١ / ٢٤٢ فتح) .

(٤) صفيه : حبيبه .

(٥) أي صبر وسلم بقضاء الله وادخر ثواب صبره عند الله .

(٦) رواه البخاري (١٠ / ١١٦ فتح) ، والترمذي (٤ / ٢٨) .

(٧) رواه البخاري (١٠ / ١٠٣ فتح) ، ومسلم (١٦ / ١٣٠ بشرح النووي) .

(٨) نصب : تعب .

(٩) وصب : مرض .

يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها» متفق عليه .

ولكن هذا الأجر والثواب إنما يكون للصابرين دون غيرهم وبهذا يعلم أن البلاء من الله خير ومنة ، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «من يرد الله به خيراً يُصب منه» رواه البخاري .

وقال أيضا : «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله ، حتى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئة»<sup>(٣)</sup> .

والثاني : الصبر على امثال ما أمر الله تعالى به ؛ لأن الطاعات تحتاج إلى صبر في تأديتها وصبر في مجاهدة الشيطان والهوى كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه»<sup>(٤)</sup> .

وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره»<sup>(٥)</sup> رواه البخاري ومسلم واللفظ له .

الثالث : صبر عن الشهوات والمعاصي ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾<sup>(٦)</sup> . والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم والترمذي وقال : حسن صحيح<sup>(٧)</sup> .

(١) رواه البخاري (١٠ / ١٠٣ فتح) .

(٢) رواه الترمذي (٤ / ٢٧) وقال : حسن غريب .

(٣) رواه الترمذي (٤ / ٢٨) وقال : حسن صحيح .

(٤) تخريج الإحياء (٨٥ / ٢) قال الحافظ العراقي : رواه ابن ماجه والنسائي بإسنادين جيدين .

(٥) رواه البخاري (١١ / ٣٢٠ فتح) ، ومسلم (١٧ / ١٦٥ شرح النووي) .

(٦) سورة النازعات الآية ٤٠ - ٤١ .

(٧) رواه مسلم ، والترمذي (٣ / ٣٨٥) .

فالشيطان يزين للإنسان المعاصي ويحببها إلى قلبه ويقربه ويدنيه منها لكي يوقعه فيها فالمرأة مثلاً إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان فيزينها في عيون الناظرين ويحسنها في قلوبهم ، فإذا صبر المسلم وغض بصره لم يستطع الشيطان أن ينفذ إلى قلبه .

الرابع : الصبر على الأذى في سبيل الله ، لأن المؤمن المتمسك بدينه الملتزم بأوامر ربه ، المقتدي بنبيه ظاهراً وباطناً لا بد أن يناله الأذى ، ويصيبه المكروه ويعاديه أهل الباطل ويخطط له ويدبر أهل الشر والفساد ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا واقع أهل الحق اليوم : المعادة من القريب والبعيد والرؤساء والشعوب ، فعلماء السوء يرمونهم بالتطرف ، والعلمانيون يرمونهم بالتخلف والرجعية ، والعامّة يرمونهم بالتعصب والترمت .

ولعل هذا يرجع إلى أن الحق لا يُمَاشي هواهم أو لأنهم لم يفهموا ما عليه أهل الحق فهمًا جيداً ولذلك نقدم هذه القصيدة لشاب من شباب الدعوة في الدفاع عن أهل الحق مع بيان منهاجهم وطريقتهم :

وَهُوَ الْمَعِينُ عَلَى نَجَاحِ الْمَقْصِدِ  
وَسَيَنْصُرُ الْمُتَتَبِعِينَ لِأَحْمَدِ  
وَأَعَدَّهُ عَوْنًا عَلَى مَنْ يَعْتَدِي  
وَبِهِ أَشَدُّ عَلَى كِتَابِ حُسْدِي  
وَبِهِ سَأَرُصِدُ لِلْكَفُورِ الْمَلْحَدِ  
لَا لَنْ أَضَامَ إِذَا اسْتَجَرْتَ بِسَيْدِي  
لَمَزَ الْأَحِبَّةَ بِالْكَلامِ الْمَفْسُدِ  
الصَّوَاعِقُ فِي السَّحَابِ الْأَسْوَدِ  
حَتَّى يَبِينَ عَلَى رَعْوَسِ الْمَشْهَدِ  
بِتَطَرُّفٍ وَتَسْرُعٍ وَتَشَدُّدِ  
سَرْنَا عَلَى نَهْجِ الْخَلِيلِ مُحَمَّدِ  
أَوْ بِالْحَدِيثِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُسْنَدِ

اللَّهُ أَكْبَرُ فِي الدِّفَاعِ سَابِتِي  
وَهُوَ الَّذِي نَصَرَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا  
وَبِهِ أَصُولُ عَلَى جَمِيعِ خُصُومِنَا  
سَأَرْسَلُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَةِ وَحِيهِ  
وَبِهِ سَأَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ مَكَابِرِ  
وَسَأَسْتَجِيرُ بِذِي الْجَلَالِ وَذِي الْعَلَا  
وَسَأَسْتَمِدُّ الْعَوْنَ مِنْهُ عَلَى الَّذِي  
حَتَّى أَشْتَتَ شَمْلَهُمْ بِأَدْلَةِ مِثْلِ  
وَيَنْوِرُ وَحْيَ اللَّهِ أَكْشَفَ جِهْلَهُمْ  
لَا تَلْمِزُونَا يَا خَفَافِشَ الدَّجَى  
لَا تَقْدِفُونَا بِالشُّذُودِ فَإِنَّا  
وَلِكُلِّ قَوْلٍ نَسْتَدِلُّ بِآيَةٍ



سِيرُوا عَلَى نَهْجِ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ  
وَلْتَعْلَمُونَهَا لِلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا  
لَا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلَا نَسْعَى  
لَيْسَ الْمَنَاصِبُ هَمًّا وَمُرَادَنَا  
إِنَّا لَنَسْعَى فِي صَلَاحِ نَفُوسِنَا  
وَنُحِبُّ أَنْ نَهْدِيَ الْبَرِيَّةَ كُلِّهَا  
وَبِوَأَجِبِ الْمَعْرُوفَ نَأْمُرُ قَوْمَنَا  
لَوْ تَبَصَّرُوا الْإِخْوَانَ فِي حَلَقَاتِنَا  
لَرَأَيْتَ عِلْمًا وَاتِّبَاعًا صَادِقًا  
أَنْعَمَ بِطُلَّابِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ  
هُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا مَصَابِيحُ الْهَدْيِ  
وَرِثُوا النَّبِيَّ وَأَحْسِنُوا فِي إِرْثِهِ  
سَعَدُوا بِهَدْيِ مُحَمَّدٍ وَكَلَامِهِ  
وَالدِّينُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ  
وَالْفَقْهُ فَهَمُّ النَّصِّ فَهَمًّا وَأَضْحًا  
لَا تَحْسِبَنَّ الْفَقْهَ مَتْنًا خَالِيًا  
أَوْ قَالَ عَالِمِنَا وَقَالَ إِمَامِنَا  
هَذَا كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ هِدَايَةٌ  
فَعَلَيْكَ بِالْوَحْيَيْنِ لَا تَعْدُوهُمَا  
فَإِذَا تَعَدَّرَ فَهَمُّ نَصِّ غَامِضٍ  
بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُورِ فَإِنَّهُ  
وَاعْلَمْ بِأَنَّ مَنْ اقْتَدَى بِمُحَمَّدٍ  
وَيَذُوقُ أَنْوَاعَ الْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى  
فَاصْبِرْ عَلَيْهِ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَائْتِقًا

لَا تَعْبَثُوا بِالْآثِمِ الْمُتَمَرِّدِ  
إِنَّا بَغِيرُ مُحَمَّدٍ لَا نَقْتَدِي  
لَهَا اللهُ مَقْصِدُنَا وَنَعْمَ الْمَقْصِدُ  
كَلَا وَلَا ثُوبَ الْخَدِيعَةِ نَرْتَدِي  
بِعِلَاجِ أَنْفُسِنَا الْمَرِيضَةَ نَبْتَدِي  
نَدْعُو الْقَرِيبَ قَبِيلَ نَصْحِ الْأَبْعَدِ  
وَنَقُومُ صَفًّا فِي طَرِيقِ الْمَفْسَدِ  
مَنْ عَالِمٌ أَوْ طَالِبٌ مُسْتَرْشِدٌ  
لِلسُّنَّةِ الْغُرَاءِ دُونَ تَرَدُّدِ  
وَأَجْلَهُمْ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ مُفْنَدٍ  
طَلَعُوا عَلَى الدُّنْيَا طُلُوعَ الْفَرْقَدِ  
وَحَمَوَهُ مِنْ كَيْدِ الْخَيْثِ الْمُعْتَدِي  
وَسِوَاهُمُو بِكَلَامِهِ لَمْ يَسْعَدِ  
وَهُمُ الَّذِينَ اللهُ أَفْضَلَ مُرْشِدِ  
مَنْ غَيْرَ تَحْرِيفٍ وَتَأْوِيلِ رَدِي  
مَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلْمُشْرَعِ مُسْنَدِ،  
أَوْ ذَاكَ مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَمُحَمَّدِ  
مَنْ سَارَ فِي تَحْصِيلِهِ لَا يَهْتَدِي  
وَأَسْأَلُكَ طَرِيقَهُمَا بَفَهْمٍ جَيِّدِ  
فَاسْتَفْتِ أَهْلَ الذِّكْرِ كَالْمُسْتَرْشِدِ  
مَنْ أَمَرَ رَبُّكَ فِي الْكِتَابِ فَجُودِ  
سَيِّئَالِهِ كَيْدِ الْغَوَاةِ الْحَسَدِ  
مَنْ جَاهِلٌ وَمُكَابِرٌ وَمُقَلِّدٌ  
هَذَا الطَّرِيقُ إِلَى الْهَدْيِ وَالسُّؤْدِ



وقال بعض العلماء : ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم<sup>(١)</sup> .

والمثل العربي يقول : العقل وزير ناصح ، والهوى وكيل فاضح .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ، فإن كان عمله تبعاً لهواه ، فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح<sup>(٢)</sup> .  
فالعاقل من يحكم عقله في هواه ، وأعقل منه من يحكم الشرع في عقله وهواه ، فعلى منهج الشرع يسير ، وبنوره يستضيء .

ولقد بين الله عز وجل أن اتباع الهوى هو طريق الضلال والانحراف ، والشقاوة والإجحاف فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وروي أن إبليس قال : أهلكتهم بالذنوب ، فأهلكوني بالاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون .

وعن أبي ברزة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم ، وفروجكم ، ومضلات الهوى»<sup>(٤)</sup> .

وقال بعض الحكماء : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع .

قال ابن عباس رضي الله عنه : ما ذكر الله عز وجل هوى في القرآن إلا ذمه ، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾<sup>(٥)</sup> وقال تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾<sup>(٦)</sup> ،

(١) أدب الدنيا والدين (١٣ - ١٦) .

(٢) القرطبي (٦ / ١٦٨) .

(٣) سورة ص الآية ٢٦ .

(٤) الترغيب (١ / ٦٤) قال المنذري : رواه أحمد والبخاري والطبراني في معاجمه الثلاثة وبعض

أسانيدهم رواه ثقات وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (١ / ٢٥) .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

(٦) سورة الكهف الآية ٢٨ .



اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿١﴾ .

ومن تحكم فيه هواه قاده إلى الذل والهوان ، والخيبة والخسران .

وقد قيل :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

قال القرطبي : «قال الأصمعي : سمعت رجلاً يقول :

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قَلْبَ اسْمُهُ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَوَانَا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هوان سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه فقال :

نُونُ الْهَوَانَ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَوَانَا

وقال آخر :

إِنَّ الْهَوَى لَهَوَ الْهَوَانَ بَعَيْنِهِ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ كَسَبْتَ هَوَانَا

وَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ تَعَبَّدَكَ الْهَوَى فَأَخْضَعَ لِحُبِّكَ كَائِنًا مَنْ كَانَا

ولعبد الله بن المبارك :

وَمِنَ الْبَلَايَا لِلْبَلَاءِ عِلَامَةٌ أَلَّا يُرَى لَكَ عَن هَوَاكَ نُزُوعُ

وَالْحُرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجُوعُ الْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهَوَاتِهَا

ولابن دريد :

إِذَا طَالَ بَتُّكَ النَّفْسُ يَوْمًا بِشَهْوَةٍ وَكَانَ إِلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيقُ

فَدَعَهَا وَخَالَفَ مَا هَوَيْتَ فَإِنَّمَا هَوَاكَ عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيقُ

ولأبي عبيد الطوسي :

وَالنَّفْسُ إِنْ أُعْطِيَتْهَا مَنَاهَا فَاعِرَةٌ نَحْوَ هَوَاهَا فَاهَا

وقال سهل بن عبد الله التستري : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك . هـ (٢)

ملخصاً .

(١) سورة الفرقان الآية ٤٣ .

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ١٦٨ .

وقال أيضاً :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْطَى نَفْسَهُ كُلَّ مَا اشْتَهَتْ      وَلَمْ يَنْهَهَا تَأَقَّتْ إِلَى كُلِّ بَاطِلٍ  
وَسَاقَتْ إِلَيْهِ الْإِثْمَ وَالْعَارَ بِالَّذِي      دَعَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلَاوَةٍ عَاجِلٍ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم ، فإن عاجلها ذميم ، وأجلها وخيم ، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب ، فسوفها بالتأمل والإرغاب ، فإن الرغبة والرغبة إذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت<sup>(١)</sup> .  
والهوى إذا تغلب على العقل أسكره ، فلا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، وربما زاد تأثيره عليه حتى يقلب عنده الموازين ، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً . فنعوذ بالله من الخذلان .

الحالة الثانية : أن تكون الحرب بينهما سجلاً ، فمرة يجتذبه الهوى ومرة يعود إلى رشده . فعلى صاحب هذه الحالة أن يكثر من أصدقاء الخير الذين يذكرونه إذا نسي ، وينبهونه إذا غفل ، ويرشدونه إذا جهل ، وينشطونه إذا كسل ، ويقوونهم إذا ضعف ، ويأخذون بيده إلى الطريق المستقيم ، وعليه أيضاً أن يلبس درع الحرب ، ويشد عليه سلاحه وينزل ميدان النفس ؛ ليجاهد جند الهوى .

قال الحسن البصري رحمه الله : أفضل الجهاد : جهاد الهوى ، وقال المصطفى ﷺ : «المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه»<sup>(٢)</sup> .

وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته؟ قال : من جاهد الهوى طاعة لربه ، واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه .  
وقال بعضهم : خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه ، وعصى هواه في طاعة ربه . وعليه أن يستमित في الجهاد؛ لأن الغنيمة ثمينة «ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة»<sup>(٣)</sup> .

(١) أدب الدنيا والدين ١٥ ، ١٦ .

(٢) قال العراقي : رواه ابن ماجه والنسائي بسندين جيدين .

(٣) رواه الترمذي وحسنه .

وعليه أن يصبر وإن طال الجهاد فحري بالمجاهد أن ينتصر، وبالصابر أن يفوز، وبالراغب أن ينال.

وعليه أن يستعين بالله على نفسه وهواه ؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وعليه أن يدعو بدعاء إمام المجاهدين عليه السلام <sup>(١)</sup> : «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» <sup>(٢)</sup> وقوله : «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها» رواه أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم <sup>(٣)</sup>.

الحالة الثالثة : أن يتغلب على الهوى فيكته ويقهره ، ويكبح جماحه، ويوجهه نحو الشرع فيه يستضيء ، وعلى طريقه يسير، وبرسوله يقتدي وهؤلاء هم المستقيمون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، الذين تمثلوا قول النبي عليه السلام : «قل آمنت بالله ثم استقم» <sup>(٤)</sup> وهم المقصودون بقول الله تعالى : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَإِنِّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» <sup>(٥)</sup>.

يقول سيد قطب رحمه الله : «والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري ، قاده خوف هذا المقام إلى الندم والاستغفار والتوبة فظل في دائرة الطاعة.

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى وينبوع الشر، وقل أن يؤتى إنسان إلا من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل للأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلْبُ أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير

(١) رواه أبو داود (٢/ ٢٣٨) وابن ماجه (١/ ٦٠٩).

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم (١٧/ ٤١).

(٤) رواه مسلم .

(٥) سورة النازعات الآية ٤٠ - ٤١ .

هذا الحاجز أمام دفعات الهوى ، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس ، العليم بدائها، الخبير بدوائها ، وهو وحده الذي يعلم دروبها، ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكائنها ومخابئها .

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيّب، وكتب له بهذا الجهاد الشاق الجنة مثابة ومأوى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾<sup>(١)</sup> ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد، وقيّمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع، وليس إنساناً يترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته ، فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهى النفس عنه ، ودفعها عن جاذبيته وجعل له الجنة مأوى حين ينتصر ، ويرتفع ، ويرقي اهـ<sup>(٢)</sup> .

### ١٣ - سوء الظن :

إن سوء الظن من الفخاخ التي يصطاد بها الشيطان قلوب العباد ؛ لأن سوء الظن من عوامل تفكيك الجماعات ، وإفساد العلاقات ، وتقطيع أواصر المحبة، وفي هذا الجو المظلم يستطيع الشيطان أن يعمل عمله ، وينفذ خطته ، فيصطاد المسلمين واحداً تلو الآخر؛ لأنهم تفرقوا ولم يجتمعوا ، وتفككوا ولم يعتصموا ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من أراد بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد» رواه أحمد

(١) سورة النازعات الآية ٤١ .

(٢) الظلال (٦ / ٣٨١٩) .

والترمذي وقال: حسن صحيح غريب<sup>(١)</sup>.

ولذلك يجتهد الشيطان في التفريق بين الأحبة، وتشيتيت الصحبة، ولكن النبي الرحيم - صلوات الله وسلامه عليه - نهنا إلى هذا المدخل الخيـث من مداخل اللعين فقال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» رواه البخاري واللفظ له، ومسلم وأبو داود والترمذي<sup>(٢)</sup>.

قال الحافظ: قال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها، ولذلك عطف عليه قوله «ولا تجسسوا»، وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة، فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع؛ فنهى عن ذلك وهذا الحديث يوافق قول الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾<sup>(٣)</sup> فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة؛ لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظان: أبحث لأتحقق قيل له: ﴿ولا تجسسوا﴾ فإن قال: تحققت من غير تجسس، قيل له: ﴿ولا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ اهـ<sup>(٤)</sup>.

قال القرطبي رحمه الله: الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه، والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقوله: ﴿لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾<sup>(٥)</sup>.

قال: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له

(١) رواه أحمد، والترمذي (٣/ ٣١٥) وصححه الألباني في ظلال الجنة (١/ ٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٤٨١ فتح)، ومسلم (١٦/ ١١٨ بشرح النووي).

(٣) سورة الحجرات الآية ١٢.

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٨١).

(٥) سورة النور الآية ١٢.

أمانة صحيحة، وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهده منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهر بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث<sup>(١)</sup>. وعن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه، وأن يظن به ظن السوء»<sup>(٢)</sup> ١ هـ.

قال ابن كثير رحمة الله عليه: «وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً»<sup>(٣)</sup>.

روى أبو داود بسند جيد عن زيد رضي الله عنه قال: أتني ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: إنا نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به».

ولما كان ظن السوء مفسداً للمجتمع المسلم فقد أمرنا الله باجتنابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

يقول سيد قطب رحمه الله: وتبدأ الآية بهذا النداء الحبيب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا أنفسهم نهياً لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وما دام النهي منصباً على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إichاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلاً؛ لأنه لا يدري أي ظنون تكون إثمًا.

بهذا يُطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ فيقع في الإثم، ويدعه نقياً، بريئاً من الهواجس والشكوك، أبيض يُكن لإخوانه المودة التي لا يخذشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق

(١) رواه ابن ماجه بنحوه وسنده ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي (١٦ / ٣٣٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٢١٢).

(٤) الحجرات: (١٢).

والتوقع ، وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون . اهـ<sup>(١)</sup> .

والظن خواطر تقع في القلب ربما لا يستطيع الإنسان دفعها فيجب عليه أن يضعفها بظن الخير ، فإن لم يستطع فعليه أن يتذكر عيوبه وخفايا ذنوبه ؛ لينشغل بها عن عيوب الناس . فإن لم يستطع أن يدفع الظن السيئ بذلك فعليه أن لا يتكلم به أو يبحث عن تحقيقه ، وبهذا يسلم من الإثم ؛ لأن النبي ﷺ قال<sup>(٢)</sup> : «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل ، أو تتكلم» متفق عليه .

#### ١٤ - احتقار المسلم :

إن احتقار المسلم والسخرية منه أعظم الذنوب عند الله تعالى ، ولذلك يقول النبي ﷺ<sup>(٣)</sup> : «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» . حتى وإن وقع من المسلم شيء خارج عن الآداب الاجتماعية - يجب أن يلتمس له الأعداء ففي صحيح<sup>(٤)</sup> البخاري : عن عبد الله بن زمعة قال : «نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس» يعني - الفساء والضراط - بدليل الرواية الأخرى للبخاري<sup>(٥)</sup> من حديث عبد الله بن زمعة أيضاً ثم وعظهم في الضرطة فقال : «لم يضحك أحدكم مما يخرج منه؟!» .

فيجب أن يكون الاحترام والتقدير متبادلاً بين أفراد المجتمع المسلم ولذلك قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾<sup>(٦)</sup> .

توجيهات إلهية لصالح المجتمع المسلم وتنقيته من شوائب الشحناء والبغضاء لو

(١) الظلال (٦/ ٣٣٤٥) .

(٢) رواه البخاري (٩/ ٣٨٨ فتح) ومسلم .

(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٢٠ بشرح النووي) .

(٤) رواه البخاري (١٠/ ٤٦٣ فتح) .

(٥) رواه البخاري (٨/ ٧٠٥ فتح) .

(٦) سورة الحجرات الآية : ١١ .



فعلاً ، قلما يتنبه إليه كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ، ويؤيده <sup>(١)</sup> قول النبي ﷺ :  
 «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا  
 ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل  
 أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة  
 فيدخلها» متفق عليه .

ولكن ربما استشكل فهم هذا الحديث على البعض ، والمعنى - والله أعلم - أن  
 الرجل يظهر الأعمال الصالحة للناس وإن قلبه مليء بالرياء والنفاق، فالظاهر للناس أنه  
 يعمل بعمل أهل الجنة، ولكن الله يعلم ما خفي عنهم من خبث باطنه؛ ولذلك يختم  
 له بعمل سيئ ، والأعمال بالخواتيم!

وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار من الذنوب والمعاصي وغيرها ثم يتوب توبة  
 صادقة خالصة ويبدأ مع الله عهداً جديداً مليئاً بالطاعات والقربات ، فيقبل الله توبته؛  
 لعلمه بإخلاص نيته، وصفاء قلبه، ويختم له بعمل صالح، والأعمال بالخواتيم .

ويؤيد ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي <sup>(٢)</sup> رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:  
 «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة - فيما يبدو للناس - وهو من أهل النار ، وإن  
 الرجل ليعمل عمل أهل النار - فيما يبدو للناس - وهو من أهل الجنة» .

ويوضح هذا ما رواه مسلم والترمذي والنسائي <sup>(٣)</sup> عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه  
 قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل  
 استشهد، فأتي به، فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك  
 حتى استشهدت، قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال هو جرىء، فقد قيل، ثم أمر  
 به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ،  
 فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته،

(١) رواه البخاري (٦ / ٣٠٣ فتح) ، مسلم (١٦ / ١٩٢ بشرح النووي).

(٢) رواه البخاري (٦ / ٩٠ فتح) ، ومسلم .

(٣) رواه مسلم (١٣ / ٥٠ بشرح النووي) ، والترمذي (٤ / ٢٠)، والنسائي .



وعن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » قال الحافظ المنذري : رواه النسائي بإسناد صحيح<sup>(١)</sup>.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « إني لأحسب الرجل ينسى العلم كما تعلمه للخطيئة يعملها » أخرجه الطبراني .

بل إن التهاون بالذنوب من علامات ضعف الإيمان ؛ لأن العبد كلما قوي إيمانه كلما زاد خوفه ، واشتد تحرزه من الذنوب ، ففي صحيح<sup>(٢)</sup> البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات » . قال البخاري رحمه الله : يعني بذلك المهلكات<sup>(٣)</sup>.

وقد قيل : لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى عظم من عصيت . ولقد بلغ من شدة تحرز الصحابة - وهم أقوى هذه الأمة إيماناً ، وأتقاهم قلوباً - أنهم كانوا يخافون النفاق على أنفسهم .

قال البخاري : وقال ابن مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه<sup>(٤)</sup>.

فيجب على العبد الذي يريد النجاة أن لا يتهاون بالصغائر فقد قال النبي ﷺ<sup>(٥)</sup> لعائشة رضي الله عنها : « إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » رواه النسائي وابن ماجه والدارمي وإسناده لا بأس به .

وأخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : « إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها ، وينسى المحقرات ، فيلقى الله وقد أحاطت به ، وإن

(١) رواه ابن ماجه (٢ / ١٣٣٤).

(٢) رواه البخاري (١١ / ٣٢٩ فتح).

(٣) فتح الباري (١١ / ٣٢٩).

(٤) البخاري / كتاب الإيمان / باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٥) رواه النسائي ، والدارمي (٢ / ٣٠٣) ، وابن ماجه (٢ / ١٤١٧).

الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقي الله أمناً.

١٦ - الأيمن من مكر الله :

من الناس من يقيم على المعاصي فإذا نصحته رد عليك بقوله: «الله غفور رحيم» ولقد نسي هذا المسكين أن عذابه هو العذاب الأليم فقد قال تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾<sup>(١)</sup> فالله غفور للتائبين ، رحيم بالمؤمنين ، ولكن العصاة لهم عذاب أليم ، فلا تغتر أيها العبد برحمة الله ولا تأمن مكره ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> . ومكر الله استدراجه بالنعمة والصحة<sup>(٣)</sup> .

والأيمن من مكر الله يورث الغفلة ، والغفلة تورث التهاون ، وما أدراك ما التهاون؟ هو سلم الشيطان وسبب من أسباب الخسران، فمن تهاون في أمر من أوامر الله ، جره الشيطان إلى ما هو أكبر منه ، وهكذا حتى يوقعه في شباك المعاصي .

فلا بد للنفس من خوف يردعها عن المعاصي ويصدها عن المحارم، بل إن المؤمن كلما ازداد إيماناً، ازداد خوفاً وشفقة على نفسه ولذلك حكى الله عز وجل عن المؤمنين في الجنة قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾<sup>(٤)</sup> .

ولذلك يقول الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن<sup>(٥)</sup> .

وعن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط

(١) سورة الحجر الآية ٤٩ - ٥٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٩ .

(٣) تفسير القرطبي (٧ / ٢٥٤) .

(٤) سورة الطور الآية ٢٦ - ٢٧ .

(٥) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٣٤) .

فقال : «لو تعلمون ما أعلم ؛ لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً» رواه البخاري<sup>(١)</sup> .  
ويقول النبي ﷺ : «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة» رواه الترمذي وحسنه . يقول المنذري - رحمه الله :  
ومعنى الحديث : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة ، والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعلائق ا. هـ<sup>(٢)</sup> .

وروى الحاكم عن بهز بن حكيم قال : أمنا زرارة بن أوفى رضي الله عنه في مسجد بني قشير ، فقرأ المدثر ، فلما بلغ : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾<sup>(٣)</sup> خر ميتاً .  
وكيف تأمن مكر الله وأمأنا يوم تشيب فيه الولدان ، يوم نقف أمام الله حفاة عراة ، فيسألنا عن كل كبيرة وصغيرة ، وكل حركة وسكنة ، ولعمر الله إن الأمر عظيم ، والخطب جليل .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال<sup>(٤)</sup> : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجلٌ توضع في أحمص<sup>(٥)</sup> قدميه جمرة يغلى منها دماغه» متفق عليه .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، قال : يقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» فاشتد ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله : أين ذلك الرجل ؟ قال :

(١) رواه البخاري (١١ / ٣١٩ فتح).

(٢) الترغيب (٦ / ٧٩).

(٣) المدثر : ٨ .

(٤) رواه البخاري (١١ / ٣١٩ فتح).

(٥) أي باطن قدميه الذي لا يصل إلى الأرض عند المشي .

«أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل» . ثم قال : «والذي نفسي في يده إنني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» . قال : فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : «والذي نفسي في يده إنني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة ، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو الرقمة في ذراع الحمار»<sup>(١)</sup> .

### ١٧ - القنوط من رحمة الله :

فإذا لم يستطع الشيطان أن يدخل للعبد من باب الأمن من مكر الله شدد عليه الأمر حتى يبأس ويقنط من رحمة الله ، فيقول له : إن ذنوبك كثيرة وعظيمة لا يمكن أن تغفر ، ولا يمكن أن تدركك رحمة الله ، فيظل خلف العبد حتى يقنط فإذا قنط قال له : إذا فتمتع من الدنيا بما تشاء قبل الموت ما دمت داخلاً النار لا محالة ، بهذه الطريقة يستدرج العبد حتى ينطلق في المعاصي والشهوات ليقضي نهمته منها . فعلى العبد أن يسد هذا المدخل بتذكر رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فالله يقبل توبة الكافر إذا تاب وأسلم فكيف لا يقبل توبة المسلم الذي أذنب؟! . وقد قيل :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ : عَفْوُ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ  
ذَنْبِكَ أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ فِي جَانِبِ عَفْوِ اللَّهِ تُغْفَرُ

وقد فتح الله باب التوبة لكل عباده وأطمعهم في رحمته فناداهم : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> .

يقول سيد قطب - رحمه الله : إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين ، الشاردين المبعدين في تيه الضلال ، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله ، إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . . . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ، ومن خارجه ،

(١) رواه البخاري (١١ / ٣٨٨) ، ومسلم (٣ / ٩٧ بشرح النووي).

(٢) سورة الزمر الآية ٥٣ .

ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ، ويجلب عليهم بخيله ورجله ، وإنه جاد كل الجد في عمله الخبيث ، ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه ، وأنه مسكين سرعان ما يسقط ، إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه ، والعروة التي تشده ، وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم .

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون ، ويوسع له في الرحمة ، ولا يأخذه بمعصية حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطاه ويقيم خطاه على الصراط .

وبعد أن يلج في المعصية ويسرف في الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد يقبل ولا يستقبل ، في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة ، الندى اللطيف :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وإذا ما علمنا سبب نزول هذه الآية رأينا سعة رحمة الله للعالمين جميعاً .

يقول ابن عباس رضي الله عنه (٢) : إن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فاتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) ونزل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآية الزمر : ٥٣ .

(١) الظلال (٥ / ٣٥٨) ، والآية من سورة الزمر: رقم (٥٣) .

(٢) رواه البخاري (٨ / ٥٤٩ فتح الباري) ، مسلم (٢ / ١٣٩ بشرح النووي) .

(٣) سورة الفرقان ٦٨ - ٧٠ .



وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، يا ابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم : لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» رواه الترمذي وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١).

ويكيفيك أن تعلم أن الله تعالى تاب على وحشي قاتل حمزة عم النبي ﷺ (٢) فهل بعد ذلك من يأس أو قنوط ؟! لا والله ولكنها حيلة من حيل الشيطان وشبكة من شبابه .

فلا تيأس وإن عظم ذنبك وكثرت معاصيك فإن عفو الله أعظم ، ولكن تب وارجع إلى ربك وقل :

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً	فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ	مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَاءُ	وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ



(١) رواه الترمذي (٥ / ٢٠٨).

(٢) انظر لباب النقول ١٨٥ .